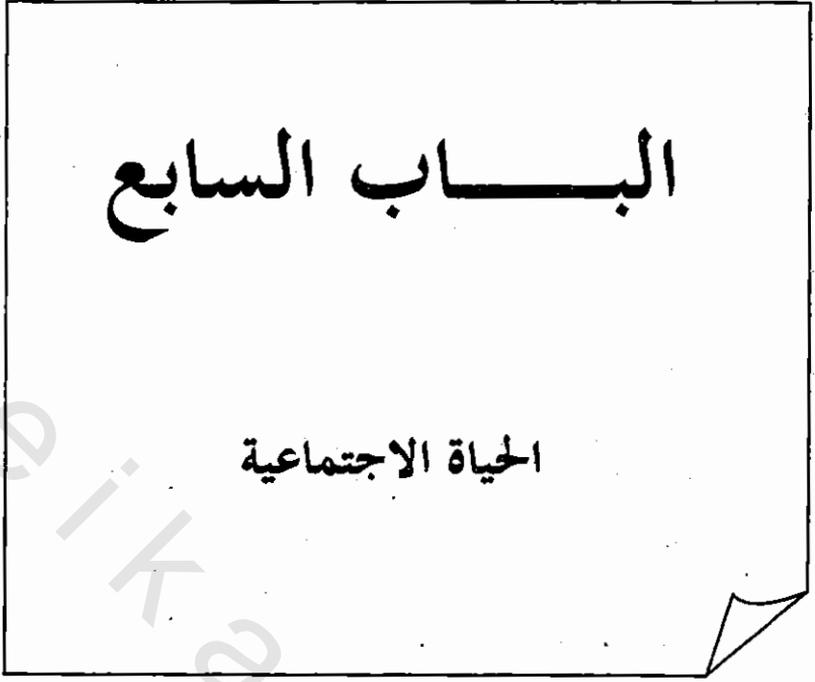


# الباب السابع

الحياة الاجتماعية



obeyikhandi.com

obeikandi.com

## أولاً: طبقات المجتمع السلوكي:

لعل أقرب تقسيم للمجتمع المملوكي في تلك الفترة، هو التقسيم الذي وضعه المقرئزي عندما درس أثر ارتفاع الأسعار في طبقات المجتمع زمن السلطان برقوق وابنه السلطان فرج، فقد قسم المقرئزي المجتمع المملوكي وقيمتها إلى سبعة أقسام، وهي، أهل الدولة، وأهل اليسار من التجار وأولو النعمة والترف، ومتوسطو الحال من الباعة والسوقة، وأهل الفلح، والفقهاء وطلاب العلم، وأرباب الصنائع والمهن، وذوو الحاجة والمسكنة<sup>(١)</sup>.

غير أن هذا التقسيم الذي نظر إليه المقرئزي من الزاوية الاقتصادية، أغفل ذكر طبقتين من أهم طبقات المجتمع في تلك الفترة، وهم الأعراب، وأرباب الوظائف الديوانية من المسلمين وأهل الذمة.

وهناك تقسيم آخر ذهب إليه ييلوتي التاجر الكويتي الذي عاش في مصر أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلادي — أي أنه كان معاصراً للسلطان برقوق وابنه السلطان فرج — فقد جعل ييلوتي المجتمع المملوكي ثلاثة أقسام، وهي: الشعب بسائر عناصره، ورجال الطبقة الحربية وهم المماليك، والبدو أو الأعراب<sup>(٢)</sup>.

أما ابن خلدون الذي عاش في مصر كذلك أواخر عهد السلطان برقوق وأوائل عهد السلطان فرج، فقد قسم المجتمع المملوكي وقيمتها إلى قسمين: طبقة حاكمة وهم المماليك، وطبقة محكومة وهي الشعب بسائر عناصره<sup>(٣)</sup>.

وكيفما كان الأمر فإن الباحث الحديث يمكنه بعد دراسته لنشاط الطوائف المختلفة في المجتمع وقيمتها، أن يتوصل إلى تقسيم هذا المجتمع إلى سبع فئات، هي:

(١) المقرئزي: إغاثة الأمة ص ٧٣.

(٢)

Dopp. Op. Cit. P. XXVI.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص ١٨٨.

المماليك أو رجال السيف، والمعممون، وأهل الذمة، والتجار، والعامّة، والفلاحون، والأعراب.

### ١- المماليك:

وهؤلاء جاءوا إلى مصر من مختلف البلاد مع تجار الرقيق الذين أتوا بهم من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر، فكانت هذه الطبقة خليطاً من الأتراك الشراكسة والروم والروس والأكراد<sup>(١)</sup>.

وفي أيام السلطان برقوق غلب على هذه الطوائف من المماليك العنصر الجركسى، حيث استحدث برقوق ديواناً يتولى شراء المماليك من بنى جنسه، كما يتولى الإنفاق عليهم<sup>(٢)</sup>، حتى بلغت عدة مماليكه من الجركس في مدة حكمه ما يقرب من خمسة آلاف مملوك<sup>(٣)</sup>، فضلاً عما جلبه من سائر الأصناف الأخرى من الترك والروم والبلغار والأص وغير ذلك، وهكذا جمع من المماليك ما لم يجمعه غيره من السلاطين، حتى قيل: «وصل جميع من اشتراه من المماليك في أيامه بدفعات متفرقة إلى أكثر من عشرين ألف مملوك»<sup>(٤)</sup>.

وقد تميز المماليك عن سائر الطبقات باعتبارهم الطبقة العسكرية المسيطرة على شعون البلاد وأهلها، فكانت لهم مكانة كبيرة في المجتمع، ومنزلة رفيعة عند السلطان، وخير ما يوضح ذلك أن السلطان برقوق لم يمت حتى عمل من مماليكه الذين اشتراهم نواباً عنه بالبلاد، كما كان «غالب أمرائها وغالب الولاة والكشاف من مماليكه الذين اشتراهم»<sup>(٥)</sup>.

Heyd: Op. Cit. P. 560.

Poliak: Op. Cit. P. 4

(١)

(٢) المقرئى: السلوك جـ ٣ ق ١ ص ٣٣٦

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ق ٢ ص ٥٢٧.

(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٩٩.

(٥) المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

وهكذا استأثر المماليك بالحكم وشئون الحرب، كما تمتع أمراؤهم بحياة البذخ والترف بحكم منزلتهم الرفيعة في الدولة، فكان الأمراء يجيئون في قصورهم في مستوى قريب من المستوى الإقطاعي المعيشي للسلطان، ويعتبر قصر الأمير صورة قريبة من القصور السلطانية، بل الأمير نفسه «سلطان مختصر»<sup>(١)</sup>.

ومن أمثلة قصور الأمراء في هذه الفترة الدار التي أنشأها الأمير بهادر مقدم المماليك السلطانية زمن السلطان برقوق، وتقع هذه الدار بخط الباطلية بالقرب من الأزهر، وقد استقرت هذه الدار بعد وفاة بهادر سنة ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م مترا لأمراء الدولة<sup>(٢)</sup>.

كذلك دلت أسمطة الأمراء على الترف الزائد، فكان سباط الأمير سودون الظاهري من أمراء الناصر فرج ألف رطل من اللحم في اليوم فضلا عن الدجاج والأوز<sup>(٣)</sup>.

ولا أدل على حياة البذخ التي كان يعيشها الأمراء مما خلفه بعضهم من ثروات طائلة، فيذكر عن الأمير أقباي رأس نوبة الأمراء زمن السلطان فرج، أنه لما توفي سنة ٨١٢هـ وجد لديه من الذهب المصري أربعون ألف دينار، فضلا عن الغلال والخيول والجمال والأثاث وغير ذلك<sup>(٤)</sup>.

وعلى رأس هذه الطبقة الحربية كان السلطان الذي يعيش في قصوره بالقلعة وسط مظاهر البذخ الإقطاعي، وكذلك كان السلطان برقوق يقيم هو وأسرته وحاشيته بالقصور السلطانية في قلعة الجبل، وسط مظاهر الفخامة والترف، في وقت غدت فيه القلعة زاخرة بقصورها الفخمة وسقوفها المذهبة وجدرانها المزدانة بالفصوص الملونة، وطرقها المغطاة بالرخام المزخرف المجلوب من سائر البلاد<sup>(٥)</sup>.

(١) القلقشندی: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦٠.

(٢) المقریزی: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٧٤.

(٣) أبو الحسن: المنهل الصافي جـ ٣ ص ٢٩٥، السخاوی: الضوء اللامع جـ ٢ ص ٣١٣.

(٤) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١، السخاوی: الضوء اللامع جـ ٣

ص ٢٨٠.

(٥) ابن شاهين: زبدة كشف المماليك ورقة ٣٤.

وأكثر ما يتضح هذا البذخ في المطبخ السلطاني الذي وصفه ابن شاهين الظاهري بقوله: «لا تنتفى النار منه أبداً»<sup>(١)</sup> فكانت مخصصات المطبخ السلطاني أيام السلطان برقوق خمسة آلاف رطل من اللحم في اليوم سوى الدجاج والأوز<sup>(٢)</sup>، بل بلغ الأمر بالسلطان برقوق استكمالا للرفاهية أنه كان يجلب الثلج من جبال الشام لتبريد الماء بالقصور السلطانية أيام الصيف، فقرر له هجنا تحمله في البر حتى يصل إلى قلعة الجبل ليحفظ في الشرايخانة ويخزن في صهاريج خاصة<sup>(٣)</sup>.

ولم تكن المطابخ السلطانية التي تصحب السلطان في أسفاره ورحلاته تقل بذخا عنها داخل القصور السلطانية بالقلعة، بل دلت هي الأخرى على المستوى الإقطاعي المعيشي للسلطان.

فمثلا حينما خرج السلطان فرج بن برقوق في سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م، على رأس الحملة المتوجهة إلى الشام لتأديب الخارجين عن طاعته واصطحب معه المطبخ السلطاني، كانت مخصصات هذا المطبخ من اللحم فقط ثمانية وعشرين ألف رأس من الغنم الضأن، هذا فضلا عما اصطحبه معه من القوافل العديدة من البقر والجاموس لأجل ألبانها<sup>(٤)</sup>.

وفي غمار هذا البذخ الواضح زخرت ملحقات القصر الأخرى بألوان الترف والرفاهية، وهي الملحقات التي عرفت في المصطلح المملوكي باسم «البيوتات السلطانية» وهي عبارة عن الشرايخانة، والطشت خاناه، والفراش خاناه وما إلى ذلك مما أفاض في ذكره النويري والقلقشندي وابن شاهين فيما كتبه<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن شاهين: المرجع السابق ص ١٢٥.

(٢) المقرئزي: المواظظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٠.

(٣) ابن شاهين: زبد كشف الممالك ص ١١٧ - ١١٨.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١٣ ص ١٣٤ - ١٣٥.

Demombynes: Op. Cit. P. CIII.

(٥) انظر النويري: نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٤ - ٢٢٦، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٩

- ١٣، ابن شاهين: زبد كشف الممالك ص ١٢٤ - ١٢٨ يضاف إلى ذلك أن الدراسات =

٢- المعمون:

وتضم هذه الطبقة أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والكتاب، كما تسمى هذه الطبقة أيضاً برجال القلم<sup>(١)</sup>.

وقد أشار القلقشندي إلى أهم المناصب الديوانية فذكر منها الوزارة ونظر الدولة واستيفاء الصحبة ونظر الخاص ونظر الجيش ونظر البيوت والحاشية ونظر بيت المال ونظر الأسواق وخزائن السلاح والأملاك السلطانية، كذلك أشار إلى أهم الوظائف الدينية كالقضاء والإفتاء ووكالة بيت المال والحسبة ونقابة الأشراف ومشيخة الشيوخ ونظر الأحباس المبرورة والخطابة والتدريس<sup>(٢)</sup>.

وقد عاشت بعض عناصر هذه الطبقة حياة مترفة، كما حظيت في مسكنها ومأكلها بنصيب وافر من الرفاهية، فكان أغلب أرباب الوظائف الديوانية يسكنون بالدور التي أقاموها على الخليج الناصري، حيث تأنقوا في بنائها وتزين سقفها، كما فرشوها بالرخام، وغرسوا حولها الأشجار، وقد أشار المقریزی إلى أن أكثر من كان يسكن هذه الديار هم الكتاب، كما وصف ترف سكانها ورفاهة عيشهم بقوله: «وإني لأذكرها وما مررت بها قط إلا وتبين لي من كل دار هناك آثار النعم، إما روائح تقالى المطبخ، أو عبير بخور الند... ونحو ذلك»<sup>(٣)</sup>.

- الحديثة المتخصصة قد أفاضت أيضاً في الحديث عن البيوت السلطانية ومديريها إضافة لا مزيد معها، ولذلك آثرت أن أصرف عنايتي إلى الأمور ذات الصلة المباشرة بفترة البحث والمتعلقة بالحوادث الخاصة بهذه الفترة، وفضلاً عن ذلك فإن أوصاف البيوت السلطانية والحديث عن مديريها أمر يكاد ينصرف إلى كل عهود المماليك وينطبق على كل سلطان يقطن بالقلعة، ومن المؤرخين المحدثين الذين تناولوا هذه الأمور بشيء من التفصيل على إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية ص ١٦٤ وما بعدها، سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٦٠ وما بعدها، عبد المنعم ماجد، نظم دولة السلاطين المماليك ج ١ ص ١٦ - ٣٣.

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري ص ٢٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٨ - ٣٩.

(٣) المقریزی: المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٦٤.

وتميزت بقية عناصر الطبقة ولا سيما جماعة العلماء باحترام المماليك في أغلب الأحيان، وقد أفاضت المصادر المعاصرة في تعدد مظاهر الحُب والاحترام التي حظي بها العلماء من جانب السلطان برقوق، فيذكر عنه أنه كان إذا دخل عليه عالم أو متصوف انتصب له قائماً، ومشى نحوه عدة خطوات محتفياً به<sup>(١)</sup> بل دفعه حبه وتعظيمه للعلماء، أنه كان إذا اجتاز بخانقاه شيخون، ظل واقفاً أمامها حتى يتهيأ شيخها الشيخ أكمل الدين البَابَرْتِي للخروج، فيركب معه ويتحدثان معاً في الطريق<sup>(٢)</sup>.

وكثيراً ما استشار السلطان برقوق العلماء في المسائل المتعلقة بالأوقاف وغيرها من الأمور الدينية، وأقرب مثل ذلك ما دار في المجلس الذي عقده السلطان برقوق سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م، بعضوية كل من شيخ الإسلام والقضاة الأربعة، حيث دار في هذا الاجتماع مناقشة حول تدبير المال اللازم لمواجهة خطر تيمور لنك، وبدا للسلطان برقوق أن يستولى على بعض الأوقاف المخصصة للجوامع والمدارس وغيرها، فلم يوافق شيخ الإسلام والقضاة الأربعة، بل قاوموا اقتراح السلطان «وأغلظوا له في القول»<sup>(٣)</sup> كذلك تمتع أغلب عناصر هذه الطبقة بثقة السلطان واحترامه، فكان لا يرد لهم كلمة ولا يرفض لهم مطلباً، وكثيراً ما قبل شفاعتهم في الأمور الجلييلة.

وآية ذلك ما حدث في سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م، حين أمر السلطان برقوق بعرض أجناد الحلقة<sup>(٤)</sup>، وكان الأجناد يتخوفون من هذا العرض كلما لجأ إليه

(١) أبو المحاسن: المنهل الصافي ج ٥ ص ١٩٤، النجوم الزاهرة: ج ١٢ ص ١٠٢، ابن الصيرفي:

نزهة النفوس ج ١ ص ٢١٣، ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ قسم ٢ ص ٥٠٣.

(٢) ابن حجر: إنباء القمر ج ١ ص ٢٩٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٠٢ -

٣٠٣، ابن العماد: شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ق ٢ ص ٣٨٦.

(٤) أجناد الحلقة: محترفو الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، وهم أقرب فئات

المماليك إلى الجيوش النظامية في العصور الحديثة، ومرتباهم من ديوان الجيش، سعيد عاشور:

العصر المماليكي ص ٣٨٧.

السلطان<sup>(١)</sup>، لما يحدث فيه من حرمان بعضهم من الإقطاعات أو الإنقاص منها، فسعى الأمراء لدى شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني باعتباره موضع ثقة السلطان، ليشفع لهم في إبطال هذا العرض، فقبل السلطان شفاعة البلقيني وأبطل هذا العرض<sup>(٢)</sup>.

ولا يخفى أن مرد هذه الثقة وهذه المكانة السامية التي حظى بها كثير من العلماء، إنما يرجع إلى السلوك القويم الذي انتهجه كثير منهم، فلم ينافقوا ولم يلتمسوا المبررات الشرعية التي تخدم مصالحهم، وتضمن بقاءهم في مناصبهم، وثمة شواهد كثيرة تؤيد ذلك، من ذلك ما أشارت إليه المصادر المعاصرة من أن أحد الأمراء مات في عهد برقوق وورثه مولاه، فادعى برقوق قرابته له وأنه الوريث الشرعي لهذا الأمير، فتوقف الشيخ عبد الواحد المصري مباشر توقيع الحكم وقتئذ حتى تثبت له صحة هذه الدعوى، وحين ثبتت صحة الدعوى بالطريق الشرعي وقبض برقوق الميراث، أعطى منه للشيخ المذكور ثلاثة آلاف درهم، فامتنع من أخذها، معتذرا بأنه ما ساعده إلا الله تعالى، فحسن اعتقاد برقوق فيه<sup>(٣)</sup>، وولاه فيما بعد وظيفة كتابة السر، وهي من الوظائف الديوانية الرفيعة.

وهذه الصور المشرفة من مواقف العلماء هي التي جعلت السلطان برقوق يتقرب إليهم، وينزلهم من نفسه منزلة سامية، فلا عجب بعد ذلك أن ينزل السلطان من القلعة ليعود الشيخ أكمل الدين البابرتمى في مرضه، ثم ينزل بعد ذلك حين يبلغه نبأ وفاته لحضور الصلاة عليه ويستمر ماشياً أمام نعشه حتى يدفن، وقد حاول مراراً أن يحمل النعش على كتفه، فحال الأمراء بينه وبين ذلك<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثانى ص ٥٦١.

(٢) ابن الصيرقى: نزهة النفوس جـ ١ ص ١٥٢.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٩٥.

(٤) المقرئى: السلوك جـ ٣ قسم ٢ ص ٥٢١، ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٩٨، ابن

الصيرقى: نزهة النفوس جـ ١ ص ١٠٢.

على أن مواقف العلماء والقضاة وغيرهم لم تكن مضطربة هكذا طوال هذا العهد، بل تخلل ذلك بعض المواقف التي اتسمت بالنفاق وممالة السلطة، ولعل أشهر مثل لذلك الفتاوى التي أصدرها الفقهاء بشأن الأوقاف الخاصة بمدرسة الأمير جمال الدين يوسف الأستاذار زمن السلطان فرج بن برقوق، حيث تغيرت صورة الفتاوى عدة مرات ممالة للسلطة، مما جعل المقریزی يصف هذا الموقف بقوله: «فكانت قصة هذه المدرسة من أعجب ما سمع به في تناقض القضاة وحكمهم بإبطال ما صححوه، ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه، كل ذلك ميلا مع الجاه، وحرصاً على إبقاء رياستهم»<sup>(١)</sup>.

### ٣- أهل الذمة

إذا كان أهل الذمة قد تعرضوا لألوان من الاضطهاد حالت بينهم وبين تقلد الوظائف العامة في فترات منقطعة على عهد الحكومات المملوكية السابقة، فإنه لم يخل بينهم وبين تقلد هذه الوظائف مطلقاً في عهد كل من السلطان برقوق والسلطان فرج.

ويكفي أن الوزارة غدت في هذه الفترة تعرف بوزارة الأقباط<sup>(٢)</sup>، كما اختفت روح التعصب التي كانت تقصدهم عن الوظائف، وتفرض عليهم القيود في اللبس والمظهر، فكثيراً ما أفاضت المصادر المعاصرة عن تكرار مثل هذه الأمور في عصر المماليك، من ذلك ما يشير إليه المقریزی من أن الظاهر بيبرس «أمر بحرق النصارى في سنة ٦٦٣هـ فتشفع فيهم على أن يحملوا خمسين ألف دينار فتركوا»<sup>(٣)</sup>.

(١) المقریزی: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٠١ - ٤٠٣.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢١٦.

(٣) المقریزی: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٠٢.

وأن النصارى في عهد السلطان قلاوون كانوا «يركبون الحمير بزنانير في أوساطهم، ولا يجسر نصراني يحدث مسلماً وهو راكب، وإذا مشى فينزله، ولا يقدر أحد منهم أن يلبس ثوباً مصقولاً»<sup>(١)</sup>.

كذلك حرم عليهم قلاوون الالتحاق بالوظائف الحكومية، كما ألحق بهم أذى كثيراً<sup>(٢)</sup>.

وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون فرضت قيود مشددة على اليهود والنصارى، من حيث اللبس والمظهر العام<sup>(٣)</sup>، وصدرت أوامر الناصر بعدم استخدامهم بالدواوين، وهدد من يخالف هذه التعليمات بسفك دمه<sup>(٤)</sup>.

ولم يكن إقصاء أهل الذمة عن الوظائف العامة ناجماً عن قيام بعضهم بأحداث الشغب في كل الحالات، بل كان يكفى أن ينتقد وضع أهل الذمة وما هم عليه من ترف وتعال، من ذلك ما يشير إليه المقرئ في حوادث سنة ٧٥٥هـ من أن بعض كتاب النصارى مر أمام الجامع الأزهر راكباً وخلفه طائفة من خدمه، فأثار هذا المظهر فريقاً من المسلمين واشتد غضبهم، وأنزلوه عن فرسه وكادوا يفتكون به، وقد ترتب على هذا الحادث إقصاء أهل الذمة عن الوظائف العامة بما في ذلك الديوان السلطاني ودواوين سائر الأمراء، وأن يحال بينهم وبين ذلك حتى بعد دخولهم في الإسلام<sup>(٥)</sup>.

وكيفما كان الأمر فقد حرص السلطان برقوق منذ توليه السلطنة على إسناد الأعمال الديوانية إلى الأقباط، كما سار ابنه السلطان فرج على هذه السياسة من بعده، ولا شك أن ذلك يرجع إلى ما أثبتته القبط من كفاءة في إدارة شئون الدولة بوجه عام، وإدارة الشئون المالية بوجه خاص، وإن اشترط عليهم في ذلك اعتناق

(١) المقرئ: نفس المصدر والجزء ص ٤٩٧.

(٢) وليم موير: دولة المماليك ص ٦٠.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ القسم الأول ص ٤٠٨.

(٤) المقرئ: السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩١١.

(٥) المقرئ: المصدر السابق ج ٢ القسم الثالث ص ٩٢٢ - ٩٢٤.

الإسلام، وسواء منهم من أسر دينه وادعى الإسلام أو جهر بالإسلام، فقد وصلوا إلى المناصب الهامة في الدولة، ومن هؤلاء شمس الدين إبراهيم القبطي المعروف بكتاب أرلان، الذي قلده السلطان برقوق الوزارة سنة ٧٨٥هـ وبالحق في إجلاله وتنفيذ كلمته على مرأى ومسمع من الأمراء حين «وضع السلطان يده على يد نفسه وقال للأمراء: انظروا إلى يد الوزير فقد جعلتها فوق يدي مبالغة منه في تنفيذ كلمته»<sup>(١)</sup> ولم يزل يسوس شئون الوزارة بهذه السلطة الواسعة حتى تمكن من إنقاذ مالية البلاد، في الوقت الذي خلت فيه خزائن الدولة من المال<sup>(٢)</sup>.

وظل في وظيفته يهابه الخواص والعوام، إلى أن توفي سنة ٧٨٩هـ، فترك خزائن الدولة عامرة بالأموال الوفيرة<sup>(٣)</sup>.

كذلك كان سعد الدين إبراهيم بن عبد الرزاق بن غراب من بين الأقباط الذين اعتنقوا الإسلام، وتقلبوا في الوظائف في سلطنة الناصر فرج الأولى، حتى تقلد الوزارة ونظر الجيش وكتابة السر ثم الأستاذية<sup>(٤)</sup>، وكانت وظيفة الأستاذية من المناصب الرفيعة في الدولة في هذه الفترة، حيث كان لا يتقلدها غير العسكريين، ويعتبر ابن غراب هذا أول من تقلد هذه الوظيفة من غير العسكريين، ولم يقف الأمر به عند هذا الحد، بل صار في سلطنة فرج الثانية من كبار الأمراء، كما عهد إليه بالإشراف على شئون الدولة، فازداد نفوذه، حتى إنه لما مرض، كان كبار الأمراء يعودونه وقوفاً على أقدامهم حتى ينصرفوا<sup>(٥)</sup> «فقال في مرضه من السعادة ما لم يسمع بمثله لأحد من أبناء جنسه... وكانت جنازته أحد الأمور العجيبة بمصر، لكثرة من شهدها من الأمراء والأعيان وسائر أرباب الوظائف، بحيث استأجر الناس السقائف والحوائت لمشاهدتها»<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٢.

(٢) أبو المحاسن: المنهل الصافي (مطبوع) ج ١ ص ٥٧.

(٣) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ١ ص ١٦١.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع ج ١ ص ٦٦.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع ج ١ ص ٦٦.

(٦) المقرئ: المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٢٠.

ولا أدل على سياسة التسامح التي اتبعتها الدولة تجاه الأقباط عامة في مصر، من هذه الأنباء التي أوصلها بطاركتهم إلى مسامح إمبراطور القسطنطينية، يذكرون له حسن معاملة السلطان فرج لهم، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في نفس الإمبراطور مما جعله يوجه رسالة إلى السلطان فرج في سنة ٨١٤هـ، ومعها الهدايا الجليلة، ويوصيه في هذه الرسالة بالبطاركة «وكذلك النصارى والكنائس على حكم معدلة السلطان ومحبتة، والوصية بهم، ومعاونتهم وإجراؤهم على جرى عوائدهم، من غير تشويش على ما ألفوه من إنصافكم أولا وآخرنا لأجل محبتكم لنا ومحبتنا، واستمرار العناية بهم، مع أن البطاركة عرفونا أن مولانا السلطان يبرز مرسومه بمراعاهم، والإحسان إليهم، ولم يزلوا داعين له شاكرين من معدلته، ونضاعف شكرنا من إحسانكم على ذلك»<sup>(١)</sup>.

وكان من أثر اعتماد الدولة على كتاب النصارى أن ازداد نفوذهم، فعاشوا عيشة مترفة، وانصرف كثير منهم إلى جمع الثروة، وأكثر ما يتضح بذخهم في الحفلات التي يقيمونها في منازلهم، من ذلك ما أشارت إليه المصادر من أن سعد الدين نصر الله بن البقرى القبطى الأسلمى ناظر الخاص، أقام في داره فاجتمع نساؤه وأقاربه، وقد أخذوا في التزين بكل ما يمكن من الثياب الحرير، وعليهم من اللؤلؤ والجوهر والذهب ما تجل قيمته، والمغان تغنيهن، والخمور دائرة بينهن<sup>(٢)</sup> وحين صادرت الدولة ثروته بلغت قيمتها ثلاثمائة ألف دينار<sup>(٣)</sup>.

وتمتعت بقية عناصر هذه الطبقة كذلك بالثراء والغنى، ولا أدل على ذلك مما خلفه بعضهم من ثروات طائلة، فيذكر عن فخر الدين بن سبع الخلوّتى، أنه لما توفى سنة ٧٩٢هـ، وجد لديه مليون ومائتا ألف درهم، كما وجدت له من الغلال والمواشى والرقيق ما تبلغ قيمته ضعف ذلك<sup>(٤)</sup>.

(١) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢١ - ١٢٢.

(٢) المقرئى: السلوك ج ٣ القسم الثانى ص ٥٠٠، ابن الصيرفى: نزهة النفوس ج ١ ص ٧٧.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٧.

(٤) ابن حجر: أنباء الغمر ج ١ ص ٤٠٢ - ٤٠٣.

كما تمتعت بطركية الأقباط في القاهرة بالثراء الوفير في تلك الفترة، فكانت تبذل بعض هذه الثروة في مساعدة الحجاج المسيحيين المارين بالقاهرة في طريقهم إلى دير سانت كاترين<sup>(١)</sup>.

ومع أن الدولة قد أسندت وظيفة الوزارة وغيرها من الوظائف المالية إلى الأقباط، فإنها كانت لا تتردد في أخذهم بالشدة، فتصادر أموالهم وتعاقبهم إذا ما أساءوا التصرف، ولا يعد ذلك اضطهاداً، فكثيراً ما صادرت الدولة غير الأقباط، كما أنزلت بهم أشد العقوبات لنفس هذا المعنى.

كذلك لا تعد بعض الإجراءات التي اتبعت مع الأقباط في عهد السلطان برقوق على أنها عمل تعسفي أملت روح التعصب الديني، لأنها إجراءات تتبعها الدولة مع كل من يحد عن الطريق السوي، لا فرق في ذلك بين مسلم ونصراني، فمثلاً قام برقوق في سنة ٧٨٠هـ — وهو يومئذ أمير كبير — بهدم كنيسة للأقباط بناحية الجيزة وحولها مسجداً، وكان الذي دفعه إلى ذلك إلى أصوات النواقيس كان يجهر بها في ليلة الجمعة بهذه الكنيسة<sup>(٢)</sup>.

على أن الأمر الجدير بالملاحظة أنه لم يترتب على هذا الحادث ما كنا نعهده قبلاً من فرض القيود على النصراني في ملبسهم ومظهرهم وإقصائهم عن الوظائف العامة في مثل هذه الأمور.

#### ٤- التجار:

ساهمت طبقة التجار في بناء المجتمع المصري مساهمة فعالة، وقد أدرك السلطان برقوق ما لهذه الفئة من أهمية بالغة في بناء الدولة، باعتبارها المصدر الأساسي الذي يمد الدولة بالمال عندما تدعو الحاجة، وأقرب مثل لذلك ما لجأ إليه السلطان برقوق في سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م، عندما اقترض من التجار مبلغ مليون درهم، لتجهيز الحملة الحربية المتجهة إلى الشام لقتال تيمور لنك<sup>(٣)</sup>.

Doppe. Op. Cit. P.P: 31 - 32.

(١)

(٢) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٥٠٧.

(٣) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٨٦، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٤٦٨.

فلا عجب أن يعمد السلطان برقوق إلى تقريب هذه الفئة منه وخاصة التاجر الكارمي، الذي ظل محتفظاً بمكانة ممتازة طوال عهد السلطان برقوق وابنه السلطان فرج.

فيذكر عن أبي بكر الخروبي التاجر الكارمي زمن السلطان برقوق، أنه «كان رئيساً ضخماً... وعظم قدره في الدولة»<sup>(١)</sup>.

كذلك كان برهان الدين المحلي التاجر الكارمي أيام السلطان برقوق معظماً عند الدولة<sup>(٢)</sup>.

ومن مظاهر احترام التجار الكارمية في تلك الفترة إكرام السلطان برقوق لهم بالإنعام عليهم بالخلع الثمين، تقديراً لجهودهم ومساهماتهم في خدمة المجتمع<sup>(٣)</sup>. وتمتعت بقية عناصر هذه الطبقة من التجار عامة بالثراء العريض<sup>(٤)</sup>، كما تميز كبارهم وأثريائهم من أرباب التجارة الداخلية باسم «بياض الناس» وهي الصفة التي أطلقت على تجار العنبر، الذين أشار إليهم المقرئ بقوله: «ولهم أموال جزيلة، وفيهم رؤساء وأجلاء»<sup>(٥)</sup>.

كذلك تميز تجار سوق المهامزين وسوق الحوائصين باسم «بياض العامة»<sup>(٦)</sup> وهي الصفات التي نعت بها أيضاً كبار التجار في هذه الأسواق، نظراً لما يتمتعون به من الثراء الوافر كذلك.

وساهم كثير من التجار بنصيب وافر في مجالات البر والخير، فمدوا يد المعونة للمجتمع في أوقات الشدة، كما وجهوا عنايتهم إلى المؤسسات الخيرية والدينية بمصر والحرمين، وحسبنا أن نلمح كثيراً من هذه الجوانب في العبارات التي يوردها

(١) ابن حجر: إنباء الفجر جـ ١ ص ٣٠٦.

(٢) ابن حجر: المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٠.

(٣) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٨٦.

(٤) ابن حجر: تاريخ المائة التاسعة ورقة ٦٦ - ٦٧.

(٥) المقرئ: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٣.

(٦) المقرئ: نفس المصدر والجزء ص ٩٨ - ٩٩.

المؤرخون أثناء الترجمة لهؤلاء، فمثلا كان جمال الدين يوسف بن أحمد التاجر المتوفى سنة ٧٨٥هـ «له إحسان وإفضال ولا يتشدد في تقاضى ماله من الدين، ويتصدق»<sup>(١)</sup> كذلك أوصى التاجر المشهور زكى الدين الخروبي المتوفى سنة ٧٨٧هـ «بأشياء كثيرة في وجوه البر والقربات، منها للحرمين ألفا مثقال ذهباً»<sup>(٢)</sup> كما أوصى على بن عبد العزيز أحد أعيان التجار بمصر زمن السلطان برقوق «مائة ألف درهم فضة لعمارة الحرم المكي، فعمر بها بعد الاحتراق»<sup>(٣)</sup>. كذلك أسهم ذوو اليسار من التجار في بناء المؤسسات التعليمية والخيرية بمصر، كما رصدوا لها الأوقاف الجليلة<sup>(٤)</sup>.

### ٥- العوام:

وشملت هذه الطائفة أصحاب الحرف الدنيا كالأساكفة وغاسلى الموتى والباعة المتجولين ونحوهم<sup>(٥)</sup>، كما شملت هذه الفئة الزعر<sup>(٦)</sup> والمساكين من السؤال<sup>(٧)</sup>، واكتظت القاهرة بهذه العناصر، كما استعانت بها القوى المتصارعة على السلطة، فكانت العامة توازر المنتصر، حتى إذا ما لاحت علامات النصر في جانب الفريق الآخر انضموا إليه، وهكذا كان هدفهم هو تحقيق أكبر قسط من الكسب عن طريق نهب بيوت المنتهزمين.

ففى ثورة يلبغا ومنطاش ضد السلطان برقوق سنة ٧٩١هـ، استعان برقوق بالعوام، فدفع إلى أحد أمراءه جملة من المال ليفرقها «فى الزعر وحملة السلاح من

(١) ابن حجر: إنباء الفجر جـ ١ ص ٢٨٧.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر والجزء ص ٣٠٦.

(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٥ ص ٢٤٠.

(٤) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٨، ابن حجر: إنباء الفجر جـ ١ ص ٢٨٥.

(٥) طرخان: النظم الإقطاعية ص ٣١٠.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ١٠٩، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٢٠٣

واستعملت كلمة الزعر فى العصر المالئكى لتدل على المفسدين وقطاع الطرق واللصوص الذين

يتعرضون للمارة، سعيد عاشور: العصر المالئكى ص ٤٢٩.

(٧) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٧٢.

العامّة، تقوية لهم ليقاتلوا مع العسكر»<sup>(١)</sup> ثم عاد السلطان مرة أخرى عندما اقترب الثوار من القاهرة وبدر على العوام فضة وذهباً جزافاً<sup>(٢)</sup>.

وعندما لاحت علامات النصر في جانب الفريق الثائر، انصرف العوام عن برقوق وانقلبوا ضده ونهبوا ما حوله<sup>(٣)</sup>.

وفي أثناء المجاعات كان للمساكين والمعدمين نصيب من عطف السلاطين تخفيفاً عنهم، كذلك عرف عن السلطان برقوق أنه تحمل العبء عن الفقراء بالتوسع في الصدقة والإحسان إليهم طيلة مدة الغلاء في سنة ٧٩٧هـ، بحيث لم يمت أحد بالجوع في أيام هذه المحن<sup>(٤)</sup>.

## ٦- الفلاحون:

أما طبقة الفلاحين فقد ظلت كما هي في علاقتها بالأرض، تفتى حياتها في ظل النظام الإقطاعي الذي لا يترك لها من خيراتها إلا النذر اليسير.

وفي عهد السلطان فرج زاد حال الفلاحين سوءاً، نتيجة لكثرة المغارم والمظالم التي حلت بهم<sup>(٥)</sup>، مما دفع بالكثير منهم إلى الجلاء عن أوطانهم والهجرة إلى المدن<sup>(٦)</sup>.

## ٧- الأعراب:

دأبت المصادر المعاصرة للسلطان برقوق على وصف هذه الطبقة دائماً بالمفسدين<sup>(٧)</sup>، نظراً لما ارتبط به تاريخ هذه الطبقة بالثورات ضد السلطة الحاكمة والاعتداء على الأمنين من أهل الريف والمدن قتالاً وسلباً.

(١) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٦٠٨ .

(٢) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٣) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٦١٥ .

(٤) المقرئى: إغائة الأمة ص ٤٤ - ٤٥، ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

(٥) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٩٨ .

(٦) المقرئى: إغائة الأمة ص ٤٤ .

(٧) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤١٥، العيني: عقد الجمان جـ ٢٤ القسم الأول ورقة ١٠٠ .

وقد حاول السلطان برقوق بعد أن ازدادت ثورتهم على عهده أن يكبح جماحهم، فاستحدث نيابة بالوجه البحري وأخرى بالوجه القبلي<sup>(١)</sup>.

وبالرغم من أن السلطان برقوق استطاع أن يحد من نفوذهم بعض الشيء، فإن ذلك لم يمنعهم من الاشتراك في المؤامرة التي دبرها الخليفة المتوكل سنة ٧٨٥هـ والتي كان الهدف منه القضاء على سلطنة برقوق<sup>(٢)</sup>.

كذلك لم يمنعهم من الإغارات على المدن الكبرى، فقد هاجموا مدينة أسوان سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م وسلبوا ما بها كما قتلوا معظم أهلها<sup>(٣)</sup>.

ونظرا لما عرف عن العربان من ازدياد مؤامراتهم وكثرة اعتداءاتهم في أوقات الحرج والخطر الخارجي، فقد عمدت الحكومة في مثل هذه الظروف إلى إرسال تعزيزات عسكرية إلى مناطق تجمعات العربان لحفظ الأمن بها، فمثلا عندما رحل السلطان برقوق إلى بلاد الشام سنة ٧٩٣هـ لتأديب الثائرين بها، عين نائبه بالقاهرة نحو مائتي جندي وأمرهم بالتوجه إلى جهة الصعيد ليعسكروا هناك<sup>(٤)</sup>، وفي نفس الوقت عين النائب مثل هذا العدد وأمرهم بالتوجه إلى بلاد الوجه البحري<sup>(٥)</sup>.

على أن فساد العربان قد ازداد في عهد السلطان فرج، نتيجة انشغاله بمحاربة الأمراء الخارجيين عن الطاعة بالشام، فثار عربان الصعيد سنة ٨٠٤هـ وقتلوا كاشف الوجه القبلي كما قتلوا من جنوده نحو مائتي نفس، وقاموا بنهب جميع ما معهم من الأثقال والجمال<sup>(٦)</sup>.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) المقرئزي: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٤٩٣ - ٤٩٥، ابن حجر: إنباء الفجر جـ ١ ص ٢٧٥ - ٢٧٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٥، ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٦٩ - ٧١، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٣) ابن حجر: إنباء الفجر جـ ١ ص ٣٠٢، ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ١١٩.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٤٤٧.

(٥) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٣٣.

(٦) المقرئزي: السلوك جـ ٣ القسم الثالث ص ١٠٨٩، ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ٢ ص ١٤٧.

كذلك ذكر بيلوتى أن الإسكندرية ظلت مدة تحت رحمة العربان نتيجة سيطرتهم على الطريق الذى يربطها بالقاهرة<sup>(١)</sup>.

أما عن حياة مشايخ العربان وزعمائهم فيبدو مما ذكرته المصادر، أن الكثير منهم تمتع بالثروة والغنى، فيذكر أن إسماعيل بن مازن الهوارى أحد أكابر العرب بالصعيد زمن السلطان برقوق، مات «وخلف أموالا كثيرة جدا»<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: الملابس:

أما الملابس التى ميزت طبقات المجتمع المختلفة، فقد ظل رجال السيف يحافظون على لباس الرأس الذى انتقل إليهم من أيام الأيوبيين، الذين دأبوا على تغطية رءوسهم بكلوتات صفر، كانت تتخذ من الصوف المضرب بالقطن، وتلبس دون عمامة حولها<sup>(٣)</sup>، ومرت هذه الكلوتات فيما بعد بمراحل مختلفة، فكانت عرضة لتحويرات وتغييرات، اقتضتها الطرز المستحدثة فتغير لونها زمن خليل بن قلاوون من الصفرة إلى الحمرة، كما جعلت العمام من فوقها<sup>(٤)</sup>.

وفى عهد السلطان الناصر محمد استحدثت العمام الصغيرة وهى التى عرفت بالعمائم الناصرية، ثم زيد فى قدر هذه العمام زمن السلطان شعبان بن حسين، وظلت هكذا حتى عهد السلطان برقوق<sup>(٥)</sup>، فبالغوا على عهده «فى كبر الكلوتات» وصارت تسمى بالكلوتات الجركسية<sup>(٦)</sup>.

وكان لبس العمامة حتى أيام السلطان برقوق يعتبر أمراً قومياً، ويعد نزاعها عن الرأس «عاراً وفضيحة» ثم شاع بين رجال الدولة من الأمراء والأجناد على

Doppe. Op. Cit. P.P. 19 - 20.

(١)

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٣٩.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٠.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٠، المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٩٩، ماير: الملابس المملوكية ص ٥٣.

(٥) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٠، المقرئى: المصدر السابق جـ ٢ ص ٢١٧.

(٦) المقرئى: نفس المصدر والجزء ص ٢١٧.

عهد السلطان فرج بن برقوق، لبس الطواقى بغير عمامة<sup>(١)</sup>، وذلك على أثر نزول السلطان فرج من القلعة ومروره بالقاهرة، وهو لا يرتدى الكلفتاه أو القماش، وسمح لأمرائه أن ينهجوا نمجه<sup>(٢)</sup>، فصار رجال الدولة يمرون هكذا في الشوارع والمواكب ولا يرون بذلك بأساً، كذلك تنوعت هذه الطواقى ما بين خضر وحمر وزرق وغير ذلك من الألوان<sup>(٣)</sup>.

أما ثياب المماليك فكانوا يرتدون فوق القميص الأقبية التترية<sup>(٤)</sup> ومن فوقها التكلوات، ثم يرتدون فوق ذلك كله القباء الإسلامى الذى يشد عليه السيف من الجانب الأيسر، كما يشد عليه الصولق<sup>(٥)</sup> من الجانب الأيمن<sup>(٦)</sup>، ويلبس الأمراء وأعيان الجند أقبية قصيرة الأكمام فوق القباء، ولكن أكمامها أكثر اتساعاً من أكمام القباء التحتاني الضيقة<sup>(٧)</sup>.

وفي فصل الصيف كانت جميع الملابس الفوقانية للمماليك هي الملابس البيضاء، أما في الشتاء فملابسهم من الأصواف الملونة المبطنة بفراء السنجاب، وتميز كبار الأمراء باستعمال الملابس الثمينة من أنواع السمور ونحوه<sup>(٨)</sup>. وكانت ملابس أرباب الوظائف الدينية تختلف باختلاف مراتبهم، فالقضاء والعلماء يتميزون بلبس العمامم الكبار، ومنهم من يجعل طرف عمامته طويلاً منترسلاً بين كتفيه<sup>(٩)</sup>.

(١) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٤.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ٦٨، ماير: الملابس المملوكية ص ٣٣.

(٣) المقرئى: المصدر السابق جـ ٢ ص ١٠٤.

(٤) يستدل من أسماء المعاطف التترية أن هذا الثوب كان من أصل أجنى، وهو لباس مثل القفطان، وقد سمي كذلك، لأنه يخالف القفطان التركى في كون جانب صدره اليسار يلف فوق الجانب اليمين بعكس التركى (ماير - الملابس المملوكية ص ٤٠).

(٥) الصولق: مخلاة من الجلد يضعها الشخص في حزامه (المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٩٨).

(٦) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٠.

(٧) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٧.

(٨) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة، ماير: الملابس المملوكية ص ٤٦ - ٤٧.

(٩) القلقشندى: نفس المصدر والجزء ص ٤١ - ٤٢، ماير: المصدر السابق ص ٩٠.

كذلك كان من المؤلف أن يرتدى القضاة والعلماء فوق ملابسهم دلقاً<sup>(١)</sup> متمتع الأكمام، وهو مفتوح فوق الكتفين ولكنه بدون فتحة خلفية ويكون هذا الدلق مسترسلاً حتى القدمين<sup>(٢)</sup>.

وكان رجال الدين من الطبقة الأدنى أكثر أناقة في عمامتهم، كما كانوا يرتدون بدل الدلق فرجية مفتوحة من الأمام من أعلاها حتى الذيل، وبها صف من الأزرار<sup>(٣)</sup>.

وامتاز قاضي القضاة بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره<sup>(٤)</sup>، كذلك كان من بين الملابس الخاصة برجال الدين الزى الأسود لخطيب الجمعة، ويتكون من دلق، أسود وشاش<sup>(٥)</sup> أسود وطرحة سوداء، رمزاً للشعار العباسي<sup>(٦)</sup>. وتميز الأشراف — وهم سلالة علي بن أبي طالب — بوضع علامة خضراء في عمامتهم<sup>(٧)</sup>.

وأما الوزراء ومن على شاكلتهم من أرباب الوظائف الديوانية فيلبسون القراجي المضاهية لقراجي العلماء، وربما لبسوا الجلباب المفرجة من الخلف<sup>(٨)</sup>، كما لبسوا على رؤوسهم القُبُع<sup>(٩)</sup> الزركشي<sup>(١٠)</sup>.

- 
- (١) الدلق: رداء كالعباءة يلبسه الدراويش والمتصوفة، دوزي: الملابس عند العرب ص ١٥١.  
 (٢) السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٢٠، ماير: الملابس المملوكية ص ٩١.  
 (٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢، ماير: الملابس المملوكية ص ٩١.  
 (٤) القلقشندي: نفس المصدر والجزء والصفحة، السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٢٠، ماير: المصدر السابق ص ٩٣.  
 (٥) الشاش: عبارة عن قماش رقيق يلف حول العمامة، دوزي: الملابس عند العرب ص ١٩٧.  
 (٦) السيوطي: نفس المصدر والجزء والصفحة.  
 (٧) ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ١٠ - ١١، المقدسي: نزهة الناظرين ورقة ٤٩، ماير: الملابس المملوكية ص ٩٧.  
 (٨) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٣.  
 (٩) القبع غطاء للرأس شبيه بالطاقيّة، دوزي: الملابس عند العرب ص ٢٧٩.  
 (١٠) ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٢.

وكان من المألوف في أيام السلطان بقوق أنه يرتدى رجال الدين والوزراء ونظار الجيش وغيرهم الملابس القطنية البيضاء في فصل الصيف، أما في فصل الشتاء فكانوا يرتدون معاطف من الصوف الأبيض<sup>(١)</sup>.

وقد ظل هذا التقليد متبعا حتى سنة ٧٩٩هـ، عندما استأذن كاتب السر بدر الدين الكلستانى السلطان بقوق له ولجميع المتعممين أن يلبسوا الصوف الملون، فأذن لهم السلطان<sup>(٢)</sup>.

وقد لاحظ المقرئى وهو في دهشة أن القاضى شرف الدين محمد بن الدمامينى أحد نظار الجيش زمن السلطان بقوق، كان يسير في موكب رسمى وهو يرتدى جبة ملونة وطرف عمامته يسترسل من خلفه<sup>(٣)</sup>.

أما أهل الذمة من النصارى واليهود فكانوا يلبسون العمام الملونة التي كان يمكن بها تمييزهم عن المسلمين، فلبس النصارى العمام الرزق، ولبس اليهود العمام الصفرة<sup>(٤)</sup>.

وكانت الطبقات الدنيا من الشعب تلبس الطاقية، دون أن تستعمل شيئا آخر معها<sup>(٥)</sup>، ويبدو أن ملابس الفلاحين كانت قريبة مما نراه اليوم من الثياب الزرقاء واللبد الصوف فوق رءوسهم<sup>(٦)</sup>.

كذلك كان العربان يرتدون «كاملية مفرجة وعمامة بلثامين»<sup>(٧)</sup>.

وكان طبيعيا في مجتمع ترتدى فيه كل طبقة زيا مميزا متباينا، أن يرتدى رجال القلم الزى العسكرى إذا ما حصل أحدهم على رتبة عسكرية، فمثلا عندما صار

(١) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثانى ص ٨٧٥ - ٨٧٦.

(٢) ابن حجر: إنباء القمر جـ ١ ص ٥٢٦.

(٣) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثانى ص ٨٧٥.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الأول ص ٤٠٨.

(٥) ماير: الملابس المملوكية ص ٩٠.

(٦) عاشور: المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ٢١٧.

(٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٦٧.

إبراهيم بن غراب أميراً زمن السلطان فرج، ترك ملابس رجال القلم وارتدى الأزياء العسكرية «فلبس الكَلْفَتَاه وتقلد بالسيف»<sup>(١)</sup>.

ولمة ملاحظة أخيرة على الملابس في ذلك العصر، وهي أنه كلما حدث تغيير في مقومات المجتمع المملوكي بالانغماس في الترف والرفاهية، ازداد شيوع استعمال الأزياء النفيسة والمواد النادرة، إلى أن تبدأ في المجتمع مرحلة انهيار اقتصادي يترتب عليها حدوث تغيير سريع بترك استعمال الملابس الثمينة واللجوء إلى أخرى أكثر رخصاً. وهذا ما يفسر شيوع استعمال رجال الدولة من الأمراء والمماليك في عهد برقوق للفراء والكماليات النفيسة من أنواع السمور والوشق وغيرهما، بعد أن كان استعمال ذلك في العهود السالفة «من أعز الأشياء التي لا يستطيع أحد أن يلبسها»<sup>(٢)</sup> حتى إذا ما بدأت مرحلة الانهيار الاقتصادي في عهد السلطان فرج بن برقوق، وارتفعت أسعار الملابس «دعت الضرورة أهل مصر إلى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترفه، وصار معظم الناس يلبسون الجوخ» وقلما كان يوجد من الناس من يلبس الجوخ قبل ذلك، استهجاناً له لتصنيعه في عمل المقاعد وسروج البغال ونحوها، فصار يلبسه الأمير والوزير والقاضي ومن دونهم<sup>(٣)</sup>، بل كان السلطان فرج نفسه يرتدى الجوخ من وقت لآخر<sup>(٤)</sup>.

### ثالثاً: الأعياد الدينية والقومية:

ظلت الأعياد طوال عهد السلطان برقوق حافلة بمظاهر البهجة التي كانت تسودها في العهود السالفة أيام الفاطميين والأيوبيين، واشترك فيها السلطان وكبار رجال الدولة، كما شارك فيها الشعب كذلك، واقرن بعض هذه الأعياد بالعطايا والصدقات التي اعتاد السلطان برقوق توزيعها على الفقراء والمعوزين طوال أيام

(١) أبو المحاسن: المصدر السابق جـ ١٣ ص ١٥٦.

(٢) المقرئزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٣.

(٣) المقرئزي: نفس المصدر والجزء ص ٩٨.

(٤) ماير: الملابس المملوكية ص ٤٦.

سلطنته، كما اقترن بعضها بحدوث المفاصد وازدياد العيب واللهم، مما حدا بالحكومة في كثير من الأحيان إلى التدخل لمنع هذه المفاصد. ومن أمثلة الأعياد الدينية الاحتفال بالمولد النبوي بالقلعة، فكان السلطان برقوق يقيم بهذه المناسبة حفلاً عاماً يحضره شيخ الإسلام وقضاة القضاة الأربعة وشيوخ العلم، والأمراء.

وجرت العادة في مثل هذه المناسبة أن ينعم السلطان برقوق على القراء والمنشدين بعد فراغهم من القراءة والإنشاد، فيدفع لكل واحد منهم أربعمائة درهم فضة<sup>(١)</sup>، كما ينعم على كل أمير بشقة من الحرير<sup>(٢)</sup>.

وجرت العادة أن يمد السلطان برقوق في هذه المناسبة الأسمطة الهائلة، وفيها «من الأطعمة الفاخرة ما يستحي من ذكره كثرة، بحيث إن بعض الفقراء أخذ صحناً فيه من خاص الأطعمة الفاخرة فوزن الصحن المذكور فزاد على ربع قنطار»<sup>(٣)</sup> ثم يستمر الإنشاد من بعد ثلث الليل حتى الفجر<sup>(٤)</sup>.

وكان السلطان برقوق يحضر بنفسه هذا السماع، كما يقوم بتوزيع الصدقات بنفسه، فكان الخازن دار يأتيه بأكياس المال ويضعها بين يديه لتوزيعها على الفقراء والصوفية «حتى قيل: إنه فرق في الفقراء ومشايخ الزوايا والصوفية في تلك الليلة، أكثر من أربعة آلاف دينار»<sup>(٥)</sup>.

وقد استمر الاحتفال بالمولد النبوي على هذه الصورة طوال أيام السلطان برقوق<sup>(٦)</sup>، واحتفل السلطان فرج بن برقوق بالمولد النبوي على عادة أبيه في أوائل سلطنته فقط<sup>(٧)</sup>.

(١) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٢٩.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٤٩٤.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٧٣.

(٤) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٨٩١، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٤٩٤.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٧٤.

(٦) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٢٩، السندي: الاحتفال بالمولد النبوي ص ١١٠.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٥٥٨، ٥٩٥.

كذلك حرص عامة الشعب على إحياء هذه الذكرى الكريمة في يوقم عن طريق الأناشيد المصحوبة بالآت الطرب<sup>(١)</sup>.

ويحتفل الناس كذلك في النصف الأخير من شهر رجب بدوران الحمل، فترين الحوانيت والأسواق بشقق الحرير والحلى وغيرهما، كما تظل القناديل والشموع مسرجة أمام الحوانيت طوال الليل<sup>(٢)</sup>.

ويعتبر الظاهر بيبرس أول من استحدث دوران الحمل في سنة ٦٧٥هـ، واستمر ذلك من بعده<sup>(٣)</sup>، فلما كانت أيام السلطان برقوق استحدث للمحمل في أوائل سلطنته «ثوب حرير أصفر بشمسات»<sup>(٤)</sup> زرکش... فجاء أحسن ما عهد قبل ذلك<sup>(٥)</sup> كما نقش اسمه في وسط الحلى المتديرة التي زين بها المحمل<sup>(٦)</sup>.

أما سفر المحمل والحجاج إلى الحجاز فيكون في منتصف شوال<sup>(٧)</sup>، ويكون على رأس المحمل قائد يسمى «أمير الحاج» وهو عادة من أمراء المثين، وفي بعض الأحيان يتولى إمرة الحاج أمير عشرة، أو أمير الطبلخانه السلطانية<sup>(٨)</sup>، ويتولى الإشراف على القافلة التي تضم عددًا كبيرًا من الحجاج والجمال التي تحملهم وتحمل أمتعتهم<sup>(٩)</sup>.

(١) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ١٦٨.

(٢) ابن الحاج: المدخل جـ ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٩.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٩٦، ابن إياس: بدائع الزهور. جـ ١ القسم الأول ص ٣٣٦.

(٤) الشمسات حلى مستديرة على هيئة الشمس، تزين بها الثياب ونحوها، ويفلب أن تكون من القصب.

Dozy: Supplement aux dictionnaires arabes art.

(٥) المقرئزي: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٤٩٧.

(٦) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٧٤.

(٧) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٨، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٦٢٩.

(٨) الرشيدى: حسن الصفا ورقة ٣٩.

وعرف عن السلطان برقوق مساهمته في تخفيف مشقة السفر على الحجاج، فقد كان في هذه الناحية «كثير الصدقات، أوقف ناحية مهتت على سحابة<sup>(١)</sup> تسير مع الحج إلى مكة في كل سنة، ومعها جمال تحمل المشاة من الحاج وتصرف لهم ما يحتاجون إليه من الماء والزاد ذهاباً وإياباً»<sup>(٢)</sup> كما شمل بره بلاد الحجاز، فكان يبعث في كل سنة إلى الحجاز ثلاثة آلاف إردب قمحا، تفرق في الحرمين<sup>(٣)</sup>.

وكان يحتفل بمواسم شهر رجب وشهر شعبان زمن السلطان برقوق، وسط مظاهر البهجة والرفاهية، حيث يزخر سوق الحلاوين في هذه المناسبة بأشكال الحلوى، وقد وصف لنا المقرئ هذه المظاهر التي شاهدها بنفسه أيام السلطان برقوق فقال: «كان هذا السوق في موسم شهر رجب من أحسن الأشياء منظراً، فإنه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطاط وغيرها... فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يتاع منها لأهله وأولاده، وتمتلى أسواق مصر والقاهرة وأريافهما من هذا الصنف، وكذلك يعمل في موسم نصف شعبان»<sup>(٤)</sup>.

أما شهر رمضان فقد ازداد اهتمام السلاطين فيه بالتوسع في الصدقة، وعرف عن السلطان برقوق أنه كان يذبح طوال أيام سلطته في كل يوم من أيام رمضان خمسيناً وعشرين بقرة، يتصدق بلحومها ومعها من الخبز آلاف الأرغفة، فكانت توزع على أهل الجوامع والخوانق والربط والسجون، بحيث يخص كل فرد رطل من اللحم المطبوخ ومعه ثلاثة أرغفة، عدا ما كان يفرق من الزوايا، فكان يعطى لكل زاوية خمسين رطلاً من اللحم الضأن<sup>(٥)</sup>.

(١) السحابة هي خيمة يستظل بها الحجاج عند نزولهم (الرشيدى: حسن الصفا ورقة ٣٧).

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٥٣١.

(٤) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٠.

(٥) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ١ ورقة ٣٣٢.

وكان من مظاهر البهجة بشهر رمضان زمن السلطان برقوق، إحياء ليلاليه بالشموع الموكبية الكبيرة الحجم التي تزخر بها حوانيت سوق الشماعيين في موسم رمضان، والتي يبلغ وزن الواحدة منها القنطار «كل ذلك يرسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح، فيمر في ليلالى شهر رمضان من ذلك ما يعجز البليغ عن حكاية وصفه»<sup>(١)</sup>.

أما الحوانيت والأسواق الأخرى الخاصة بالأطعمة والمطابخ، فهذه كانت تفتح أبوابها طوال شهر رمضان إحياء ليلاليه<sup>(٢)</sup>.

واحتفلت الدولة رسمياً بالعيدين، فكان السلطان برقوق يَنْزِل إلى الجامع أو الميدان بالقلعة لتأدية صلاة العيد مع كبار رجال الدولة ثم يمنحهم التشاريف بهذه المناسبة<sup>(٣)</sup>.

وتبدو مظاهر البهجة والاحتفاء بعيد الفطر في كثرة المعروض بالأسواق من حاجيات هذا العيد، ويشير المقرئى إلى هذه المظاهر التي شاهدها بنفسه في سوق الحلاويين زمن السلطان برقوق، بقوله: «وكانت تروق رؤية هذا السوق في موسم عيد الفطر، لكثرة ما يوضح فيه من حب الخشكناج وقطع البسندود»<sup>(٤)</sup>، ويشرع في عمل ذلك من نصف شهر رمضان فتملاً منه أسواق القاهرة ومصر والأرياف»<sup>(٥)</sup>.

وكانت أهم المواطن التي يهرع إليها الناس في العيد للاستمتاع القرافة والنيل، حيث يقبلون على أنواع اللهو، ويتفتنون في ألوان الم لذات<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٩٦.

(٢) سعيد عاشور: المجتمع المصرى في عصر المماليك ص ١٨٥.

(٣) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثانى ص ٩٠٩، ٩٣٥، الخطط جـ ٢ ص ٢٢٩.

(٤) كذا في الأصل، وفي صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥١٠ «الخشكناج والبسندود، وغير ذلك مما يعمل في العيد» والخشكناج، ويعرف في مصر بالخششان، نوع من الحلوى مصنوع من الرقاق على شكل حلقة مجوفة يملأ وسطها باللوز أو الفستق، أما البسندود، فأصله بالفارسية (بشندة): طعام فارسى مصنوع من دقيق وبلح، القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥١٠ حاشية رقم ٢٠١.

(٥) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٠.

(٦) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثانى ص ٩٣٥.

ولم يكن عيد الأضحى يقل بهجة في الاحتفال به عن عيد الفطر، وفيه يوزع السلطان الأضاحى الكثيرة، ويكون ذلك بالخوش من القلعة، حيث توزع الأضاحى على الأمراء وسائر أرباب الدولة من القضاة والأعيان، وكذلك المماليك السلطانية<sup>(١)</sup>، كما توزع الأضاحى أيضاً في جهات البر من الجوامع والمدارس والزوايا والمشاهد وغيرها<sup>(٢)</sup>.

أما الأعياد القومية فاشتركت في إحيائها سائر الطوائف، فكان السلطان برفوق يتزل من القلعة في موكب حافل زمن الفيضان لكسب السد<sup>(٣)</sup>، كما يهرع الناس إلى النيل حيث يستأجرون السفن في هذا اليوم للمشاركة في هذا العيد وسط مظاهر الفرح والبهجة<sup>(٤)</sup>.

وقد أشار المقرئى في حوادث سنة ٧٨٥هـ، إلى أنه «لم يعهد بعد الملك الظاهر بيبرس ملك ركب حتى خلق المقياس، وفتح الخليج، سوى السلطان برفوق»<sup>(٥)</sup>.

ومن الأعياد القومية كذلك عيد النيروز، وهو أول السنة القبطية، وتشترك فيه سائر الطوائف كذلك<sup>(٦)</sup>، وجرت العادة في الاحتفال بهذا العيد في العهود السالفة، أن يعمل موكب يسمى موكب «أمير النيل» ويسير في هذا الموكب أسافل العامة وأوباشهم، فيتوجهون إلى بيوت الأكابر، ويفرض أمير الموكب على تلك الدور مبلغاً من المال، فإن امتنع أحد أصحابها من الاستجابة لأعضاء الموكب أهانوه وسبوه، ولا يزالون كذلك حتى يأخذوا منه ما قرروه عليه طوعاً أو كرهاً، كذلك تقف طائفة منهم ويطراشون بالماء المتنجس أو بالخم<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ج١ القسم الثاني ص ٦٣١.

(٢) المقرئى: السلوك ج٣ القسم الثالث ص ١٠٦٧.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ج١ ص ٢٧٣، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ص ٢٠٠.

Dopp. Op. Cit. 20 - 21.

(٤)

(٥) المقرئى: السلوك ج٣ القسم الثاني ص ٤٩١.

(٦) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ص ٢٠١.

(٧) المقرئى: المواعظ والاعتبار ج١ ص ٢٦٩٠، ابن إياس: بدائع الزهور ج١ القسم الثاني

وجرى الأمر على هذه العادة إلى أن كانت سنة ٥٩٢هـ، وهي التي ذكر القاضي الفاضل في متجدداتها أن الأمر جرى فيها على العادة من رش الماء، غيره أنه استجد في «هذا العام التراجم بالبيض والتصافح بالأنطاع»<sup>(١)</sup>.

وما زال عيد النيروز يعمل فيه ما ذكر إلى أن كانت سنة ٧٨٧هـ فأمر السلطان برقوق بإبطال ذلك وهدد من يفعله<sup>(٢)</sup>.

وثمة ملاحظة أخيرة على مظاهر البهجة والترف في هذه الأعياد، وهي أنه كلما حدث تغيير في مقومات المجتمع المملوكي بالانغماس في الترف ازدادات مظاهر البهجة بهذه الأعياد، كذلك المظاهر التي ظلت تسود المجتمع زمن السلطان برقوق من احتفاء أهل الريف والمدن حتى الطبقات الدنيا، بمواسم شهرى رجب وشعبان، حيث يقبلون على شراء تماثيل الخيل والسباع المصنوعة من السكر ابتهاجاً بتلك المواسم<sup>(٣)</sup>.

وكذلك إحياء ليالى رمضان بالموكب التي تسير بالشموع الضخمة، التي «تحمل على العجل ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار وما فوقه»<sup>(٤)</sup> حتى إذا ما بدأت مرحلة الانهيار الاقتصادي في المجتمع زمن السلطان فرج بن برقوق، بطلت هذه المظاهر، و«تلاشى الحال لفقر الناس وعجزهم»<sup>(٥)</sup>.

#### رابعاً: المؤسسات التعليمية:

كانت نظرة المماليك إلى التعليم على أنه عمل من أعمال البر والخير، ولذلك كانت عنايتهم بتلك المؤسسات تفوق في كثير من الأحيان عنايتهم بقصورهم ومنشآتهم الدنيوية، وحاكاهم في هذا الشأن أمراؤهم.

(١) المقرئى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثانى ص ٣٦٥.

(٣) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٠.

(٤) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٩٦.

(٥) المقرئى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

وقد امتازت الفترة التي حكم فيها السلطان برقوق بكثرة المدارس والمؤسسات الخيرية المختلفة، ولا أدل على ذلك مما حكاه القلقشندي الذي عاصر بناء هذه المؤسسات، حيث أورد بعد وصفه لمدرسة السلطان برقوق التي تم بناؤها سنة ٧٨٨هـ، عبارة «وفي خلال ذلك ابنتي أكابر الأمراء وغيرهم المدارس ماملاً الأخطاط وشحنها»<sup>(١)</sup>.

وتعتبر مدرسة برقوق هذه من أشهر المدارس في الدولة المملوكية الثانية قاطبة. وقد بدأ السلطان برقوق في وضع أساسها في شهر رجب سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م بين القصرين، وأتم بناءها في شهر رجب سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م<sup>(٢)</sup>. وكانت العادة المتبعة عند الفراغ من بناء مدرسة أن يحتفل بإفتتاحها، ولذلك عندما تم بناء هذه المدرسة، نزل إليها السلطان برقوق من القلعة في موكب حافل، وسط فريق من كبار الأمراء وأعيان الدولة، وقد اجتمع بها القضاة والعلماء، حيث مد سماط<sup>(٣)</sup> زاجر بأنواع الأطعمة الفاخرة من لحوم الأوز والدجاج والخراف والأسماك، دعى إليه القضاة والفقهاء والأعيان والأمراء، وكذلك الفقراء والضعفاء، ثم مد بعد ذلك سماط آخر زاجر بالحلوى والفواكه، كما ملئت الفسقية التي بصحن المدسة بمشروب السكر والليمون، وفرق على الناس بالطاسات<sup>(٤)</sup>.

ثم أغدق السلطان برقوق الهبات على الشيخ علاء الدين السيرامي الحنفي، وكان قد استدعاه من بلاد العجم ليتولى مشيخة المدرسة وتدريس الفقه الحنفي بها<sup>(٥)</sup>.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٤.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٣١٣.

Van Berchem: Op. Cit. P. 293.

(٣) السماط: المائدة، ما يسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الأكلين، سعيد عاشور: العصر المالكي في مصر والشام ص ٤٢٦.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ القسم الثاني ص ٣٧٢.

(٥) المقرئزي: السلوك ج ٣ القسم الثاني ص ٥٤٧.

كذلك أعقد السلطان برقوق في ذلك اليوم على جميع من أسهم في بناء هذه المدرسة من الأمراء والمهندسين والمرحمين والتجارين وغيرهم<sup>(١)</sup>، فخلع على الأمير جركس الخليلي «شاد العمائر»<sup>(٢)</sup> الذي أشرف على بناء المدرسة خلعة جليلة<sup>(٣)</sup>، كما خلع على كبير المهندسين أحمد الطولوني، كذلك قدم لكل منهما فرسا بقماش مذهب<sup>(٤)</sup>.

أما بقية المساعدين فصرفت لهم المكافآت، لكل واحد خمسمائة درهم<sup>(٥)</sup>. وتكونت هيئة التدريس بهذه المدرسة على النحو التالي: الشيخ علاء الدين السيرامي لتدريس الفقه الحنفي، والشيخ أوحد الدين الرومي النسوي مدرساً للشافعية، والشيخ شمس الدين بن مكين لتدريس المذهب المالكي، كما أسند التدريس للحنابلة للشيخ صلاح الدين بن الأعمى، وقام بتدريس الحديث الشيخ أحمد زاده العجمي، وبتدريس القراءات الشيخ فخر الدين الضيرير، إمام الجامع الأزهر، أما التفسير فقد أسند للبلقيني<sup>(٦)</sup>.

وتوالى بعد ذلك الإكثار من بناء هذه المؤسسات، فقد حاكى السلطان برقوق كبار أمراءه في هذا المجال، مما أسهم في تقديم الخدمات الاجتماعية التي عم النفع بها جمهور المتعلمين في هذه المدارس بالإضافة إلى الخدمات الأخرى حيث غدت هذه المؤسسات موئلاً للعبادة وملجأ للفقراء.

ولم تكن مدرسة السلطان برقوق أول مدرسة أنشئت على عهده، بل سبقت مدرستين، إحداها للأمير صلاح الدين خليل بن عرام (ت سنة ٧٨٢هـ) نائب

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٣٧٢.

(٢) يتولى صاحب هذه الوظيفة الإشراف على العمائر السلطانية، وإنجازها «مما يختار السلطان إحداً أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار» وغيرها، القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٤٣.

(٤) ابن حجر: تاريخ المائة التاسعة ورقة ٣، أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ١٣٦.

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣١٤.

الإسكندرية في أيام إمارة برقوق، وكان برقوق وقتئذ هو المتصرف في شئون الدولة، فبنى ابن عرام المذكور مدرسة بظاهر القاهرة بالقرب من جامع الأمير حسن<sup>(١)</sup>.

أما المدرسة الأخرى فقد بناها الأمير الكبير أَيْمُشُ البَحَّاسِي قائد الجيش المملوكي زمن السلطان برقوق، وقد عرفت هذه المدرسة بالمدرسة الأَيْمُشِيَّة، وتم بناؤها سنة ٧٨٥هـ<sup>(٢)</sup>.

أما عن المدارس التي أعقبت بناء مدرسة برقوق، فقد بنى الأمير بَهَادُرُ السَمَّحَكِيَّ أستاذار السلطان برقوق، والمتوفى سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م مدرسة ونسبت إليه<sup>(٣)</sup>.

أما مدرسة إِيْنَال التي تم إنشاؤها سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م، فقد بناها الأمير إِيْنَال اليُوسُفِي، قائد الجيش المملوكي في عهد السلطان برقوق<sup>(٤)</sup>.

كذلك بنى الأمير جمال الدين محمود الأستاذار زمن السلطان برقوق، مدرسته التي عرفت باسم المدرسة المحمودية، وقد تم بناء هذه المدرسة في سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤، أى قبل وفاة صاحبها بستين، وقد تعرض المقرئى لهذه المدرسة فوصفها بقوله إنها «من أحسن مدارس مصر»<sup>(٥)</sup>.

أما المدرسة الزمامية التي تم بناؤها سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م، فقد بناها الأمير زين الدين مقبل الرومي «زمام الأدر الشريفة»<sup>(٦)</sup> زمن السلطان برقوق<sup>(٧)</sup>.

(١) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٩٤، ابن حجر: إنباء الغمر: جـ ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) المقرئى: نفس المصدر والجزء ص ٤٠٠.

Van Berchem Op. Cit. P. 295.

(٣) طرخان: دولة المماليك الجراكسة ص ٣١٩.

(٤) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٠١.

Van Berchem Op. Cit. P. 306.

(٥) المقرئى: نفس المصدر والجزء ص ٣٩٥.

(٦) الأدر الشريفة، يقصد بها الحرم السلطاني، وزمام دار، هو الموكل بحفظ الحرم، أى الذى يتحدث على باب ستارة السلطان، سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٨٨،

٤٢٣.

(٧) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٩٤.

ومن المدارس التي أنشئت على عهد السلطان فرج بن برقوق مدرسة الأمير جمال الدين يوسف أستاذار السلطان فرج، وقد تم بناء هذه المدرسة سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م<sup>(١)</sup>، ثم عين فيها جمال الدين الأستاذار لكل مذهب من المذاهب الأربعة مدرسا، بالإضافة إلى مدرس للحديث، وآخر للتفسير<sup>(٢)</sup>، فقام الشيخ همام الدين محمد ابن أحمد الخوارزمي الشافعي بالتدريس للشافعية بالإضافة إلى مشيخة التصوف، والشيخ بدر الدين محمود بن محمد المعروف بالشيخ زاده الخرزايي بتدريس الفقه الحنفي، وقام بالتدريس للمالكية الشيخ شمس الدين محمد بن البساطي، وللحنابلة أبو الفتح محمد بن نجم الدين الباهلي، وتدرّس الحديث شهاب الدين أحمد بن حجر، وفي التفسير شيخ الإسلام جلال الدين بن عبد الرحمن بن البلقيني، وصار جدول العمل بالمدرسة على هذا النحو: يبدأ الدرس الأول بمادة الفقه الشافعي، وينتهي بمادة التفسير، كما خصص صاحب المدرسة لكل واحد من هؤلاء المدرسين الستة مجموعة من الطلاب<sup>(٣)</sup>.

وقد ذكر فائق برشم: أن اسم جمال الدين الأستاذار صاحب هذه المدرسة، قد محى من هذه المدرسة في فترة لاحقة، وكتب عوضا عنه اسم السلطان الملك الناصر فرج بدائر صحنها وعلى قناديلها وبسطها وسقوفها<sup>(٤)</sup>.

ولم تكن مؤسسات التعليم هذه قاصرة على السلاطين والأمراء فحسب بل أسهم فيها كذلك ذوو اليسار من طبقات المجتمع المختلفة، فبنوا المدارس، وصارت تنسب إليهم كما تنسب إلى السلطان أو الأمير الذي يملك القدرة المادية على البناء والتعمير، فالمدرسة الخروبية التي كانت تقع على شاطئ النيل، قام بانشائها تاج الدين محمد بن أحمد الخروبي، أحد كبار التجار المصريين زمن السلطان برقوق، وقد جعل بها مدرسا للحديث فقط<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٧٩٢.

Van Berchem Op. Cit. P. 314.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٣٩٩.

(٣) المقرئزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٠١ - ٤٠٢.

Van Berchem Op. Cit. P. 315.

(٤)

(٥) المقرئزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٨، ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٨٥.

كذلك مدرسة المحلى التى أقيمت على شاطئ النيل، فى عهد السلطان برقوق، قام  
ببنائها كبير التجار بمصر برهان الدين المحلى<sup>(١)</sup>.

### المكتبات:

هذا ويلحق بالمدرسة فى أغلب الأحيان خزانة كتب، فمثلا احتوت مدرسة الأمير  
جمال الدين محمود الأستاذار زمن السلطان برقوق، على الكثير من الكتب فى سائر  
الفنون، واقتصر استعمال هذه الكتب على الدارسين بالمدرسة فقط، وقد وصف  
المقرئى خزانة الكتب هذه بقوله: «لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها...  
وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن»<sup>(٢)</sup>.

كما ألحقت خزانة كتب أيضاً بالمدرسة الزمامية التى أنشئت سنة ٧٩٧هـ فى  
عهد السلطان برقوق<sup>(٣)</sup>.

كذلك ألحقت بمدرسة الأمير جمال الدين يوسف الأستاذار فى عهد السلطان فرج  
ابن برقوق، خزانة كتب احتوت على كثير من كتب الحديث والفقه وغيره من أنواع  
العلوم، كما كان بها عشرة مصاحف كبيرة الحجم<sup>(٤)</sup>.

والملاحظ أن أغلب هذه المدارس قام بدور مزدوج فى خدمة العلم وإحياء شعائر  
الدين، فمثلا جعل الأمير مقبل الرومى فى عهد السلطان برقوق منبراً لخطبة الجمعة فى  
مدرسته المعروفة بالمدرسة الزمامية<sup>(٥)</sup>، كما كانت تؤدى بها شعائر صلاة الجمعة  
كذلك<sup>(٦)</sup>، وقد ظلت هذه المدرسة تؤدى رسالتها فى إحياء شعائر صلاة الجمعة حتى  
أيام المورخ ابن إياس الذى أشار إليها بقوله: «تقام بها الجمعة إلى الآن»<sup>(٧)</sup>.

(١) المقرئى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٩٥.

(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ ١٠ ص ١٦٨.

(٤) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٠١.

(٥) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٩٤.

(٦) السخاوى: الضوء اللامع جـ ١٠ ص ١٦٨.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثانى ص ٧٨٩.

وكذلك كانت مدرسة الأمير جمال الدين يوسف الأستاذار زمن السلطان فرج بن برقوق، فكانت كما يقول المقرئى: «يعلن فيها بالأذان خمس مرات فى اليوم والليله، وتقام بها الصلوات الخمس فى جماعة عديدة»<sup>(١)</sup>.

---

(١) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٠٢.

obeikandi.com

## الخلاصة:

نستطيع من هذه الدراسة السريعة أن نبين أهمية هذه المرحلة من تاريخ مصر فيما

يلي:

١- استطاع السلطان برقوق أن يعيد لمصر علاقاتها الخارجية مع الدول الأوربية وملوكها إلى سابق عهدها وقت حكم الناصر محمد بن قلاوون الذى لم يستطع أحفاده الحفاظ عليها، ولم ينس أن يدعم التضامن الغربى بتوثيقه للروابط بين مصر ودول المغرب في تلك الفترة.

٢- استطاع السلطان برقوق نتيجة اهتمامه بتقوية جيوشه والعناية بها أن يوقف زحف تيمور لئلك نحو بلاد الشام، ولم يتم لتيمور ذلك إلا بعد وفاة السلطان برقوق، ولم يهمل العناية بالأسطول البحرى بل دعمه وزاد من كفاءته مما مكنته من درء (دفع) خطر القراصنة عن شواطئ الدولة، وتدعيم مركزه بين الدول مما تجلّى في السفارات والزيارات التى كانت ترسل إليه.

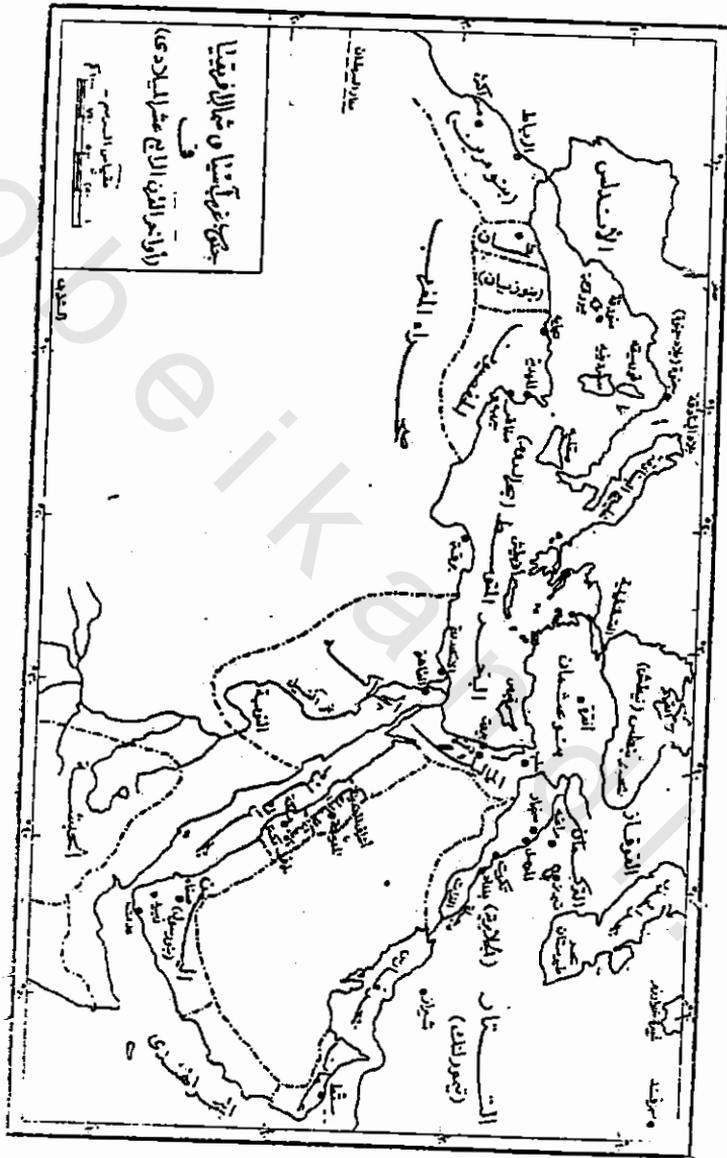
٣- ولم يقتصر اهتمام برقوق على الأخطار الخارجية بل اهتم أيضًا بدرء الأخطار الداخلية متمثلة في العربان، تجلّى ذلك في استحداثه لنيابى الوجه البحرى والوجه القبلى ليتمكن نائبه من التصرف المباشر ضد هذه الأخطار.

٤- وفى مجال العناية بالموقف الداخلى اقتصاديا حتى يضمن للدولة استمرارها فإنه قد نشط في اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتنمية موارد الدولة المالية وذلك بحسن اختياره للأشخاص الذين تولوا إدارة دفة الدولة اقتصاديًا، واهتم أيضًا بالأنشطة الصناعية وأحيا منها ما كان قد اندثر مما كان له الأثر البالغ على ازدياد النشاط التجارى الداخلى في عهده واستقرار الحياة الاقتصادية.

٥- استطاع السلطان برقوق أن يعيد للحياة الاجتماعية مجتئها التى كانت لها أيام الفاطميين والأيوبيين نتيجة الاستقرار الاقتصادى، تجلّى ذلك في مظاهر الاحتفالات الشعبية والرسمية.

obeikandi.com





# ملاحق البحث







obeikandi.com

## ملحق رقم (١)

كتاب السلطان الحفصي أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله صاحب تونس إلى السلطان برقوق في سنة ٧٩٢هـ — يهنئه فيه بالعودة إلى ملكه (القلقشندي: صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٩ - ٨٤).

«من عبد الله المتوكل على الله، أمير المؤمنين أحمد، ابن مولانا الأمير أبي عبد الله... إلى أئمتنا الذي لم نزل نشاهد من إخوانه الكرم، في ذات الرب الرحيم، قبله صفاء لم تغرها يد بعاد ولا انتزاح... السلطان الجليل الطاهر، الملك الأعظم الظاهر... أبي سعيد برقوق... فإننا كتبنا لسلطانكم — كتب الله لكم من إسناده ما يتكفل بعزه ونصره، ويتضمن إطالة زمنه المبارك وعصره، ويقوم بحفظ قطره الشريف ومصره — من حضرتنا العلية تونس... أئنا — علم الله — من حين اتصل بنا خيركم الذي جره القدر المقدور، وجرى به في أم الكتاب الحكم المسطور، لم نزل نتوجه إلى الله تعالى في مظان قبول الدعاء، ورفع النداء، بأن يجبركم بفضله من حيث صدق... إلى أن دارك الله بلطفه وأجاب... ولما جاءنا بنصركم البشير... هزنا له أعطاف الارتياح، وتلقينا منه وارد التهاني والأفراح، وحمدنا الله لكم على ما من به من الفوز والنجاح، ورأينا أن تهنتكم من فروضنا المؤكدة، وعهودنا المجددة...».

## ملحق رقم (٢)

كتاب الظاهر برقوق إلى السلطان الحفصي أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله صاحب تونس، ردا على كتابه السابق في سنة ٧٩٢هـ.

(القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٧ ص ٣٧٦ - ٣٨٤).

«من عبد الله ووليه، السلطان الأعظم، الملك الظاهر... أبي سعيد برقوق... تحية تتأرجح نفحا... وتعيد ميت الأشواق حيا، إذا ما، تخص الحضرة العلية... حضرة الأمير العالم... المتوكل على الله أحمد، ابن مولانا الأمير أبي عبد الله محمد... بعد حمد الله جامع الشمل بعد تفريقه... فإننا نوضح لعلمه الكريم أن كتابه الكريم ورد ورود السنة علي الجفن الساهر... لله دره من كتاب... جدد من أثواب المسرة ما كان قد أخلقت يد الأتراح، فهمنا معناه فهما... وعلمنا ما اتصل بسمعكم من خبرنا العجيب، وحديث أمرنا القلدم والغريب، الذي أظهر فينا لله أسراراً، وكتب لنا منه عناية كبت بها أسراراً، سبحانه... وهب ما كان سلب، وجعل لعصيرنا حسن المنقلب، أعادنا إلى الملك مع كثرة الأعداء وقلة الأنصار... فاعلموا أن الله في ذلك سرا خفيا، لم يزل ببركة رسوله بنا خفيا، قتم لنا فيه بواجب آهتنا... فاستحلينا من كتابكم عرائس بشره... ولما عرضت علينا من جودكم عند العشي الصافنات الجياد... نقسم لقد حيرتنا، ألوانها إذ حيرتنا...».

## ملحق رقم (٣)

كتاب من تيمور لنك إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٥هـ.

(الغياثي: التا، يخ الغياثي ص ١٨٨ - ١٨٩).

«إن قبل هذا كانت من الملوك من نسل جنكزخان لهم منازعات مع تلك المماليك، ومن تلك الوسطة كان يحصل لأهل الشام تفرقة وانصداع، وفي الآخر آل الأمر إلى الصلح.

ولما توفي السلطان السعيد أبو سعيد بهادرخان، إلى رحمة الله — ولم يبق من نسل جنكزخان سلطان له شوكة، وظهرت ملوك الطوائف وكثر المرج والمرج بين العالم، والآن بعناية مالك الملوك، تمام ممالك إيران من عراق العرب التي هي في جواره سخرناها، ينبغي أن يراعى حق الجوار، ونفتح أبواب المراسلات، ويتردد بيننا القصاد — بين الجانبين — لتأمن الطرقات، ويتردد التجار والقوافل».

## ملحق رقم (٤)

كتاب تيمور لنك (الكتاب الثاني) إلى السلطان برفوق سنة ٧٩٦هـ.

(المقريزي: أحمد بن علي: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٨٠٣ - ٨٠٥).

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾<sup>(١)</sup>.

اعلموا أننا جند الله مخلوقون من سخطه، مسلطون على من حل عليه غضبه، لا نرق لشاكي، ولا نرحم باكي، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا، ومن جهتنا، فقد خربنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد، وذلت لنا أعزتها، وملكتنا بالشوكة أزمتهما، فإن تخيل ذلك على السامع وأشكل، وقال إن فيه عليه مشكل، فقل له: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾<sup>(٢)</sup> وذلك لكثرة عددنا، وشدة بأسنا، فخيولنا سوابق، ورماحنا خوارق، وأستتنا بوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وجيوشنا كعدد الرمال، ونحن أبطال، وأقيال، وملكتنا لا يرام وجارنا لا يضام، وعزنا أبدا بالسودد مقام، فمن سالمتنا سلم، ومن رام حربنا ندم، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل، وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقببتم شرطنا، فلکم ما لنا وعليکم ما علينا، وإن أنتم خالفتهم وعلى بغيکم تماديتهم، فلا تلوموا إلا أنفسکم، فالحصون منا، مع تشييدها لا تمنع، والمدائن بشدهما لقتالنا لا ترد ولا تنفع، ودعاؤکم علينا لا يستجاب فينا، ولا يسمع، وكيف يسمع الله دعاءکم وقد أكلتم الحرام، وضيعتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقببتم الرشوة من الحكام، وأعددتهم لكم النار وبئس المصير ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَتِهِمْ طُلْمًا إِذْ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾<sup>(٣)</sup> فلما فعلتم ذلك، أوردتم أنفسکم موارد المهالك، وقد قتلتهم العلماء، وعصيتم رب

(١) سورة الزمر: آية ٤٦ .

(٢) سورة النمل: آية ٣٤ .

(٣) سورة النساء: آية ١٠ .

الأرض والسماء، وأرقتم دم الأشراف، وهذا والله هو البغي والإسراف، فأنتم بذلك في النار خالدون، وفي غد ينادى عليكم ﴿فَالْيَوْمَ نَجْزِيَنَّ عَذَابَ الْهَوْنِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنَّا كُنْمُ نَفْسُونَ﴾<sup>(١)</sup> فأبشروا بالمذلة والهوان، يا أهل البغي والعدوان، وقد غلب عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة، وقد سلطنا عليكم إله له أمور مقدره، وأحكام مدبرة، فعزيزكم عندنا ذليل، وكثيركم لدينا قليل، لأننا ملكنا الأرض شرقاً وغرباً، وأخذنا منها كل سفينة غصبا، وقد أوضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا برد الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء، وتضرم الحرب نارها، وتضع أوزارها، وتصير كل عين عليكم باكية، وينادى منادى الفراق: هل ترى لهم من باقية؟ ويسمعكم صارخ القناء بعد أن يهزكم هذا ﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ يَنَّ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾<sup>(٢)</sup> وقد أنصفناكم إذ راسلناكم، فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين، فما على الرسول إلا البلاغ المبين، وقد أوضحنا لكم الكلام، فأسرعوا برد جوابنا، والسلام».

(١) سورة الأحقاف: آية ٢٠.

(٢) سورة مريم: آية ٩٨.

## ملحق رقم (٥)

جواب السلطان برقوق على هذا الكتاب وتاريخه سنة ٧٩٦هـ:

(المقریزی: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٨٠٥ - ٨٠٧).

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ قُوِّي الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِئُ الْمَلِكِ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُصِرُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup>.

حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية، ونزعاتكم الشيطانية، فكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنايية، وسيرة الكفرة الملاكية، وأنكم مخلوقون من سخط الله، ومسلطون على من حل عليه غضب الله، وأنكم لا ترقون لشاك، ولا ترحمون عمرة باك، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فذاك أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين، لا من صفات السلاطين، ويكفيكم هذه الشهادة الكافية، وبما وصفتم به أنفسكم ناهية ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِوتِ﴾<sup>(١)</sup> لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ<sup>(٢)</sup> وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ<sup>(٣)</sup> وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ<sup>(٤)</sup> وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ<sup>(٥)</sup> لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾<sup>(٦)</sup> ففى كل كتاب لعنتم، وعلى لسان كل مرسل نعمت، وبكل قبيح وصفتم، وعندنا خيركم من حين خرجتم، أنكم كفرة، ألا لعنة الله على الكافرين، من تمسك بالأصول، فلا يبالى بالفروع، نحن المؤمنون حقاً، لا يدخل علينا غيب، ولا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل، فتحققنا نزوله، وعلمنا ببركته تأويله، فالنار لكم خلقت، وبللودكم أضمرت، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾<sup>(٧)</sup>.

(١) سورة آل عمران: آية ٢٦ .

(٢) سورة الكافرون.

(٣) سورة الأنفطار: آية ١ .

ومن أعجب العجب تهديد الرتوت<sup>(١)</sup> باللتوت<sup>(٢)</sup>، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع، نحن خيولنا برقية، وسهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، وليوثنا مصرية، وأكفنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكرة في المشارق والمغارب، إن قتلناكم فنعم البيضاة، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَدُّونَ﴾ (٣١) ﴿فَرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (٣٧) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٧).

وأما قولكم: قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالقصاب لا يبالي بكثرة الغنم، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم: ﴿كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤) الفرار الفرار من الرزايا، وطول البلايا، واعلموا أن هجوم النية عندنا غاية الأمانة، إن عشنا عشنا سعداء، وإن قتلنا قتلنا شهداء، ألا إن حزب الله هم الغالبون، أبعد أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، تطلبون منا طاعة؟ لا سمع لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء، ففي نظمه تركيب، وفي سلكه تليك، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفر بعد إيمان؟ أم اتخذتم لها ثان؟ وطلبتم من معلوم رأيكم أن تنع ربكم ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (٥) قل لكاتبك الذي وضع رسالته، ووصف مقالته:

(١). الرتوت: جمع رت، وهو الرئيس والسيد (لسان العرب).

(٢) في الأصل والنجوم الزاهرة ونزهة النفوس وعجائب المقدور (المطبوع): «التوت» والمثبت في عجائب المقدور ورقة ٦٤ (نسخة كتبت سنة ٨٥٢هـ قبل وفاة المؤلف، وهو النسخة المصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ٧٣٥ تاريخ).

واللتوت: جمع لت، وهو فارسي الأصل، ومعناه القدوم أو الفأس العظيمة، راجع السلوك

جـ ١ القسم الثالث ص ٨٥٨ حاشية ١.

(٣) سورة آل عمران: الآيات ١٦٩ - ١٧١.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٤٩.

(٥) سورة مرع: آية ٨٩، ٩٠.

وصل كتابك كضرب رباب، أو كطينين ذباب ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ  
 مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴿٨٠﴾﴾ (١) إن شاء الله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ  
 مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢﴾﴾ (٢) لقد لبكتم (٣) في الذي أرسلتم، والسلام».

(١) سورة مريم: آية ٧٩، ٨٠.

(٢) سورة الشعراء: آية ٢٢٧.

(٣) التبك الأمر: اختلط والتبس، واللبك: الخلط (لسان العرب).

## ملحق رقم (٦)

كتاب الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن إلى السلطان برقوق في سنة ٧٩٨هـ (القلقشندى: صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٢ - ٧٦).

«أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف العالی السلطانی الظاهري... وبعد، فإن الجلالة والاحترام بمهما دوام الموالاتة، وتوفير الحرمات، بل هي أعظم الكرامات، والمستول من المقام الشريف الظاهري أعز الله تعالى أنصاره، وضاعف اقتداره، بروز أمره الأشرف إلى النواب بمصر المحروسة، وثغر الإسكندرية، لكافة غلماننا الواردين إلى الديار المصرية، ومن انتسب إلينا من تاجر وغيره، مسافراً كان أو مقيماً، وأن يُعَارَ في مهماته، جلاله تَفِيّاً ظلّاتها، ويشمله إقبالها... ومحب المقام الشريف يقدم الكتاب، ويسأل الجواب بالإذن الشريف: ليعتمد بعد الله عليه في حج البيت الحرام، عند تيسير الله تعالى لذلك، فقد حسن ظنه بذلك، وركن إليه لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام، فلا زالت أيام المقام الشريف على منابر الدنيا تتلى، وآيات الشكر لله سبحانه على استقراره في الملك العقيم تملئ، جميع هذا الخطاب مقدمة الإيجاب بالإذن بالحج، وتسفير المحمل في كل عام، إلى بيت الله الحرام...».

## ملحق رقم (٧)

كتاب السلطان عثمان بن أبي العباس المريني صاحب فاس إلى السلطان فرج ابن برقوق في سنة ٨٠٤هـ (القلقشندي: صبح الأعشى ج ٨ ص ١٠٣ - ١٠٦).

«من عبد الله ووليه عثمان أمير المسلمين... ابن مولانا السلطان المظفر... أبي العباس ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سالم، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد، ابن مولانا أبي يوسف يعقوب بن علي الخلق... إلى محل أختنا... أبي السعادات فرج بن السلطان الجليل... أبي سعيد برقوق... سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمد الله على سبوغ نعمائه... فإننا كتبنا إليكم... وقد كان انتهى إلينا حركة عدو الله وعدو الإسلام، الباغي بالاجترار على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام، الآخذ فيهم بالعبث والفساد، الساعى بجهده في تهلثم الحصون وتخريب البلاد، وتعرفنا أنه كان يعلق أمله الخائب بالوصول إلى أطراف بلادكم المصرية، وانتهاز الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية، والحمد لله الذي كفى بفضلله شره، ودفع نقمته وضره، وانصرف ناكصا على عقبه، خائبا من نيل أربه، ولقد كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذي غلبه الله عليه، وما أضمر لخلق الله من الشر الذي يجده في أخراه ظله يسعى بين يديه، عزمنا على أن نمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضاء، ونجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يحميكم في إمداد المناصرة ويرتضي، فالحمد لله على أن كفى المؤمنين القتال، وأذهب عنهم الأوجال، ويسر لهم الأعمال... وهو سبحانه وتعالى يلتم سعادتكم... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

## ملحق رقم (٨)

جواب السلطان فرج بن برقوق على هذا الكتاب.

(القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٧ ص ٤٠٧ - ٤١١).

«عبد الله ووليه السلطان الأعظم... يخص المقام العالی رفع الله تعالى له في ملكه الشامخ منارا، وجعل النصر والظفر له شعارا... أما بعد حمد الله... فإنه ورد علينا على يد رسولكم كتاب كريم طاب وروده... وقابلناه من القبول بما كاد باطنه لكمال الموافاة يكون عنوانا للظاهر... وفهمنا ما أظهره من كوامن الحجة التي بلغت من القلب الشغاف... وانتهينا إلى ما أشار إليه المقام العالی من التلويح إلى طرق أطراف ممالكنا الشريفة من طارق الاعتداء، وما كان من الواقعة التي كاد خبرها لفظاعته يكون كالمبتدا.

ونحن نبدي لعلم المقام العالی ما يوضح أن ما وقع من هذه القصة لم يكن عن سوء تدبير، ونورد عليه من بيان السبب ما يحقق عنده أن ذلك لم يكن لعجز ولا تقصير، بل الأمر قدر في الأزل، ومقدور الله تعالى لا يدفع بالحيل.

وذلك أنه لما اتصل بمسامعنا الشريفة قصد العدو إلى جهتنا، وتجاوز حد بلاده إلى أطراف مملكتنا، بادرننا بالحركة إليه في عسكر لجب، وجيوش يضيق عن وسعها الفضاء الرحب، من كل بطل عركته الحروب، وثقفته الخطوب... وتحركنا من الديار المصرية في جيوش لا يأخذها حصر، ولا يظن بها على كثرة الأعداد كسر، ولم نزل نحث السير، ونسرع الحركة للقاء العدو لإسراع الطير، حتى وافينا دمشق المحروسة فزلنا بظاهرها، مستمطرين النصر في أوائل حركتنا وأواخرها، وانضم إلينا من عساكر الشام وعربائها، وتركنا لها الزائدة على العد وعشراتها، ما لا ينقطع له مدد، ولا يدخل تحت حصر ولا عدد، وأقبل القوم في لفيف كالجراد المنتشر، وأمواج البحر التي لا تنحصر: من أجناس مختلفة، وجموع على تباين الأنواع مؤتلفة، وتراءى الجمعان في أفسح مكان، ورأى كل قبيل الآخر رأى العين وليس الخبر كالعيان، وأعتدَّ الفريقان للنزال، واحترفوا خنادق للاحتراس، وتبوأنا مقاعد للقتال، ولم يبق إلا المبارزة، والتقاء الصفوف والمناجزة،

إذ ورد من جهتهم يطلب الصلح والموادة، والجنوح إلى السلم وقطع المنازعة، فأجبتهم بالإجابة، ورأينا أن حقن الدماء من الجانبين من أتم مواقع الرأي إصابة... فبينما نحن على ذلك، واقفون من المواعدة على المواعدة على ما هنالك، إذ بلغنا أن طائفة من الخونة الذين ضل سعيهم، وعاد عليهم بالوبال، والله الحمد، بغيهم، توجهوا إلى الديار المصرية للاستيلاء على تحت ملكنا الشريف في الغيبة، آمليين ما لم يحصلوا منه إلا على الخيبة، فلم يسع إلا الإسراع في طلبهم، للقبض عليهم وإيقاع النكال بهم، وجازيناهم بما يجازى به الملوك من رام مرامهم، وظن العدو أن قصدنا الديار المصرية إنما كان لخوف أو فشل، فأخذ في خداع أهل البلد حتى سلموه إليه وفعل فعلته التي فعل، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً.

ثم لم نزل ندأب في تحصين البلاد وترويح أعمالها، وترتيب أمورها وتعديل أحوالها، حائطين أقطارها المتسعة بجيوش لا يكمل حدّها، ولا يعقب بالجزر مدها، ليكونوا للبلاد أسواراً، وللدولة القاهرة إن شاء الله أعواناً وأنصاراً، وأعاد الله تعالى المملكة إلى حالها المعروف، وترتيبها المألوف، فاستقرت بعد الاضطراب، وتوطنت بعد الاغتراب.

والله تعالى يجنب إحساءكم الكريم مواقع الغير، ويقرّن مودته الصادقة بصفاء لا يشوبه على ممرّ الزمان كدر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

## ملحق رقم (٩)

كتاب مانويل إمبراطور الدولة البيزنطية إلى السلطان فرج بن برقوق في السابع والعشرين من صفر سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م.

(القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٨ ص ١٢١ - ١٢٢).

«المعظم المجدد، المبجل، الضابط، السلطان، الكبير، سلطان مصر ودمشق وحلب وغيرها، الملك الناصر فرج ابن السلطان الكبير المرحوم الظاهر برقوق المحبوب إلى أكثر من أولاد مملكتي.

يحيط علمه أنني ومملكتي طيبون بنعمة الله تعالى، وكذلك تكون — إن شاء الله تعالى — سلطنتك الممجدة طيبة في خير، وأن المحبة والمودة لم تنزل بين والدك المرحوم وبين والدي إلى آخر وقت.

ونحن بحمد الله قد تزايدت محبتنا على ذلك وتكاثرت، وتتوكد أيضًا الثبة بيننا وبين سلطنتك المعظمة إلى الأبد، فإن ذلك واجب، وتتردد رسلكم بكتبكم إلينا، وكذلك رسلنا بكتبنا إلى ملككم، وكان قصدنا أن نجهز إليكم رسولا لكن الفتن في بلادنا، وما بلغنا من سفر مولانا السلطان من تحت مملكته، ولم نعرف إلى أي مكان توجه، أوجب تأخير ذلك، وأن حامل هذا الكتاب المتوجه به إلى السلطان المعظم المسمى (سورمش) التاجر من اسطنبول هو من جهتنا، وله عادة بالتردد إلى مملكتكم المعظمة، ونحن نعلم أن سلطنتك تحب الطيور الكواهي<sup>(١)</sup>، فجهزنا لكم صحبة المذكور خمس كواهي وبازدار<sup>(٢)</sup>، ليكون نظركم الشريف عليهم، وكذلك على البطاركة والنصارى والكنايس على حكم معدلة السلطان ومحبتة، والوصية بهم، ومعاونتهم ورعايتهم وإجراؤهم على جرى عوائدهم، من غير تشويش على ما ألفوه من إنصافكم أولا وآخرا لأجل محبتكم لنا ومحبتنا،

(١) كواهي: أي صقور الصيد، راجع أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ حاشية ص ٦٤.  
(٢) البازدار: هو الذي يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده، القلقشندي: صبح الأعشى

واستمرار العناية بهم، مع أن البطارقة عرفونا أن مولانا السلطان يبرز مرسومه بمراعاتهم، والإحسان إليهم، ولم يزالوا داعين له شاكرين معدته، ونضاعف شكرنا من إحسانكم على ذلك، وتكونوا إن شاء الله تعالى طيبين، والمحبة متزايدة في أيامكم وأيامنا، ومهما كان لمولانا السلطان بمملكتنا من أطواع<sup>(١)</sup>، فيرسم يعرفنا بها ونبادر بذلك».

(١) كذا أوردها المحقق في المتن، وأوضح في الحاشية أنها هكذا في الأصل ومراده من خدم وحاجات.

## ملحق رقم (١٠)

كتاب دوج البندقية المسمى ميخائيل إلى السلطان فرج بن برقوق في ١٦ من  
صفر سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م.

(القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٨ ص ١٢٣ - ١٢٤).

السلطان المعظم، ملك الملوك «فرج الله» ناصر الملة الإسلامية، خلد الله  
سلطانه.

يقبل الأرض بين يديه نقولا دوج البنادقة، ويسأل الله أن يزيد عظمته، لأنه  
ناصر الحق ومؤيده، وموئل الممالك الإسلامية كلها، وينهى ما عنده من الشوق  
والحجة لمولانا السلطان، وأنه لم تنزل أكابر التجار والمحتشمين<sup>(١)</sup> والمترددين من  
الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده،  
وتزايد الدعاء ببقاء دولته، وقد رغب التجار بالترداد إلى مملكته الشريفة بواسطة  
ذلك، ولأجل الصلح المتصل بيننا والحجة.

وأما غير ذلك، فإنه بلغنا ما اتفق في العام الماضي من حبس العر<sup>(٢)</sup> في ثغر  
دمياط المحروس، وأن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحتشمين من التجار  
بثغر الإسكندرية المحروس، وزنجهم بالحديد، وأحضرهم إلى القاهرة، وحصلت  
لهم البهدلة بين جنوسهم والضرر والقهر الزائد، وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا،  
فإن الذي فعل مع المذكورين إنما فعل معنا، وتعجبنا من ذلك، لأن طائفتنا لم يكن  
لهم ذنب، وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان في مملكته، ومحبتنا له، ومناداتنا في  
جميع مملكتنا بكثرة عد له، ومحبتنا لطائفتنا، وإقباله عليهم، وقولنا لجميع نوابنا:  
إنهم يكرمون من يجدونه من مملكة مولانا السلطان ويراعونه ويحسنون إليه،

(١) يقصد بذلك أكابر تجار البنادقة، والمحتشمون جمع محتشم، وهو من الألقاب التي اصطلاح عليها  
لتجار الروم والفرنج، والمراد بذلك الرئيس الذي له خدم وحشم، القلقشندي: صبح الأعشى  
جـ ٦ ص ٨٣.

(٢) كذا في الأصل.

والمستول من إحسانه الوصية بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم، والنظر في أمورهم إذا حصل ما يشبه هذا الأمر، ومنع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار، ويترددوا إلى مملكته».

obeykandil.com

## ملحق رقم (١١)

كتاب القبطان الجنوى بميناء الماغوصة بقيرص إلى السلطان فرج بن برقوق في  
صفر سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م.

(القلقشندي: صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢٤ - ١٢٥).

«الملك المعظم، ملك الملوك، صاحب مصر المحروسة، الملك الناصر، عظم الله  
شأنه،

يقبل الأرض بين يديه الكبطان والمستشارون، وينهون أنهم آناء الليل داعون  
بطول بقائه، مجتهدون في استمرار الصلح والمودة التي لا يشوبها كدر بين  
القومون<sup>(١)</sup> وبين مولانا السلطان، وأن في هذا الوقت ثم حرامية غراب<sup>(٢)</sup>  
يتحرمون<sup>(٣)</sup> بأطراف هذه البلاد، واليمن الإسلامية، ونحن علم نزل نشحطهم<sup>(٤)</sup>  
بالمراكب والأغربة<sup>(٥)</sup>، ونمنعهم من ذلك جهدنا وقدرتنا، حتى إن أحدًا صار لا  
يجسر على الدخول إلى ميناء الماغوصة جملة كافية، مع أننا كنا نخلصنا في المدة  
الماضية من الحرامية المذكورة خمسة وعشرين نفرًا من المسلمين، وأكرمناهم  
وأطلقنا سبيلهم، وعزمنا أن نجهزهم إلى دمياط أو إلى ثغر الإسكندرية، وأما غير  
ذلك، فقد بلغنا أن برطلما أوسق للمواقف الشريفة صابونا في مراكبه، وكان  
قصده أن يهرب بذلك، فللحال عمرنا مركبًا كبيرًا، وأخذنا برطلما المذكور  
بالبحار، وأحضرناه إلى الماغوصة، وعهدنا بطروق المركب إلى شخص يسمى  
أرمان سليوريون، وهو رجل مشكور السيرة، وقلنا له أن يتوجه إلى خازن  
الصابون المذكور ويستشيريه إن كان يوسق شيئًا من الأصناف لمولانا السلطان،

(١) لعله الحاكمون بجنوة، وانظر القلقشندي: صبح الأعشى ج ٨ ص ٤٨.

(٢) أي غراب.

(٣) في الأصل يتحرمون — بالحاء المهملة — ولعل الصواب ما أثبتته، وفيه معنى الاعتداء.

(٤) أي نظاردهم.

(٥) الأغربة أو الغرابان، نوع من السفن الحربية تركب فيه المقاتلة والجدافون، والغالب كما يتضح

من تسميتها ألها كانت على شكل الغراب، ابن ممتي: قوانين الدواوين ص ٣٤٠.

ويجهزه إلى أى مكان اختاره ليسلمه ليد من تبرز له المراسيم الشريفة بتسليمه، فليفعل، وهذا القول كله يكون دليلاً عند مولانا السلطان على صدق الولاء والتمسك بالصلح.

والمستول من الصدقات الشريفة الإقبال على التجار الجنوية الذين عند مملكته، وكف أسباب الضرر عنهم، ويتشر معدته عليهم، والله تعالى يدم بقاءه بمنه وكرمه».

## المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية المخطوطة:

البغدادى: أحمد بن عبد الله (١١٠٢هـ):

عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصور والأزمان — مصورة في مجلدين بدار الكتب المصرية برقم ٣٨١٠ تاريخ.

ابن بهادر: محمد بن محمد (من علماء الثلث الأخير من القرن التاسع الهجرى):

فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، جزءان، مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٩٩ تاريخ.

ابن حبيب: الحسن بن عمر (٧٧٩هـ):

درة الأسلاك في دولة الأتراك، الجزء الثالث، مصور بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ٦٥٩ تاريخ.

ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن على (٨٥٢هـ):

تاريخ المائة التاسعة، مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٤٧٦٧ تاريخ.

الحالدى: بهاء الدين محمد بن لطف الله العمرى (٩٣٧هـ):

المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الإنشاء، مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٢١٠٣١ ز.

ابن دقماق: صارم الدين إبراهيم بن محمد (٨٠٩هـ):

الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين — النسخة الخطية بدار الكتب المصرية برقم ١٥٢٢ تاريخ (والإشارة إليها في البحث كالاتى): (الجوهر الثمين ص...و) والمصورة برقم ١٥٨٧ تاريخ (والإشارة إليها في البحث، ابن دقماق الجوهر الثمين ورقة...).

الرشيدى: أحمد بن عبد الرزاق بن محمد (١٠٩٦هـ):

حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى أمرة الحاج — مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ٢١٥ تاريخ.

- السخاوى: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢هـ):  
الذيل التام على دول الإسلام — مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول  
العربية برقم ١٠٥٨ تاريخ.
- السلامى: شهاب الدين أحمد (القرن التاسع الهجرى):  
مختصر التواريخ — مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٤٣٥ تاريخ.
- ابن شاهين الظاهرى: غرس الدين خليل الظاهرى (٨٧٣هـ):  
زبدة كشف المالिक وبيان الطرق والمسالك — مصورة بمعهد المخطوطات  
بجامعة الدول العربية برقم ٦٩٢ تاريخ.
- ابن شاهين الملقى: عبد الباسط بن خليل (٩٢٠هـ):  
نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين — مصورة بمعهد المخطوطات  
بجامعة الدول العربية برقم ٥٤٣ تاريخ.
- العيني: بدر الدين محمود (٨٥٥هـ):  
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان — الجزء الرابع والعشرون والخامس  
والعشرون — مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ.
- ابن قاضى شهبة: أبو بكر أحمد بن محمد (٨٥١هـ):  
ذيل تاريخ الإسلام (الإعلام بتاريخ أهل الإسلام) مصور بدار الكتب المصرية  
برقم ٣٩٢ تاريخ.
- أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (٨٧٤هـ):  
المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى — ٥ أجزاء، مرقمة بعدد الصفحات —  
وهى النسخة الخطية بدار الكتب المصرية برقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور.
- ونسخة أخرى في ٣ مجلدات، مرقمة بعدد الأوراق، وهى النسخة الخطية بدار  
الكتب المصرية برقم ١١١٣ تاريخ.
- المقدسى: مرعى بن يوسف (١٠٣٣هـ):  
نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين — مخطوط بدار  
الكتب المصرية برقم ٢٠٧٦ تاريخ.

- المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ):  
المقفي في تراجم أهل مصر والواردين عليها — مصورة بمعهد المخطوطات  
بجامعة الدول العربية برقم ٥١٠ تاريخ.
- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٢هـ):  
نهاية الأرب في فنون الأدب — الجزء الثلاثون — مصور بدار الكتب المصرية  
برقم ٥٤٩ معارف عامة.

## ثانياً: المصادر العربية المطبوعة:

- ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي (٧٢٩هـ):  
معالم القرية في أحكام الحسبة (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٦م) حققه الدكتور محمد محمود شعبان - صديق أحمد المطيعي.
- ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفى (٩٣٠هـ):  
بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول، القسم الأول والثاني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة سنة ١٩٧٤ - ١٩٧٥م، حققه محمد مصطفى.
- الجهرتى: عبد الرحمن بن حسن (١٢٤١هـ):  
عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج١، طبعة بولاق سنة ١٢٩٧هـ.
- ابن الجيعان: شرف الدين يحيى (٨٥٥هـ):  
التحفة السنوية بأسماء البلاد المصرية، نشر موريتز، بولاق ١٨٩٨م
- ابن الحاج: أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري (٨٣٧هـ):  
المدخل إلى التنبيه على بعض البدع والعوائد، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة سنة ١٩٦٠م.
- ابن حبر: أحمد بن علي العسقلاني (٨٥٢هـ):  
(أ) إنباء الغمر بأنباء العمر، الجزء الأول والثاني، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة سنة ١٩٦٩ - ١٩٧١م، حققه الدكتور حسن حبشي.
- (ب) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، دار الكتب الحديثة، القاهرة سنة ١٩٦٦ - ١٩٦٧م تحقيق محمد سيد جاد الحق.
- الخيمني: الحسن بن أحمد (١٠٧٠هـ):  
سيرة الحبشة، مطبعة دار العالم العربي، القاهرة ١٩٧٢م، وحققه الدكتور مراد كامل.
- الخزرجي: أبو الحسن علي بن الحسن (٨١٢هـ):  
العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، مطبعة الهلال، القاهرة، سنة ١٩١١م.

- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ):  
 (أ) التعريف بابن خالدون ورحلته غربا وشرقا، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥١م، حققه محمد بن تاويت الطنجي.  
 (ب) مقدمة ابن خلدون، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.  
 (ج) العبر وديوان المتبدأ والخبر — الجزء الخامس، بيروت، مصور، عن طبعة بولاق سنة ١٢٨٤هـ.
- ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أيذر العلائي (٨٠٩هـ):  
 الانتصار بواسطة عقد الأمصار، الجزء الرابع والخامس، طبعة بولاق سنة ١٣١٠هـ، نشر فولرز.
- السنخاوي: محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢هـ):  
 الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، طبعة القدسي، القاهرة، سنة ١٣٥٣ — ١٣٥٥هـ.
- السللاوي: أبو العباس أحمد بن خالد (١٣١٥هـ):  
 الاستقصار لأخبار دول المغرب الأقصى ج٢ مطبعة محمد مصطفى، القاهرة ١٣١٢هـ.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (٩١١هـ):  
 (أ) تاريخ الخلفاء، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٦٩م حققه محمد محيي الدين عبد الحميد.  
 (ب) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة سنة ١٩٦٧م، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم.  
 ابن شاهين الظاهري: غرس الدين خليل (٨٧٣هـ):  
 زبدة كشف الممالك بيان الطرق والمسالك، باريس ١٨٩٤م.  
 الشوكاني: محمد بن علي اليميني (١٢٥٠هـ):  
 البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٣٤٨هـ.

ابن الصيرفي: على بن داود (٩٠٠هـ):

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، الجزء الأول والثاني، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٠ - ١٩٧١م حققه الدكتور حسن حبشى.

ابن طباطبا: محمد بن على المعروف بابن الطقطقى (ولد سنة ٦٦٠هـ وأتم

كتابه سنة ٧٠١هـ ولا تعرف سنة وفاته):

الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مطبعة المعارف بمصر سنة ١٩٣٨م.

ابن طولون: شمس الدين محمد بن على (٩٥٣هـ):

إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٣م، حققه عبد العظيم خطاب.

ابن ظهيرة: برهان الدين إبراهيم بن على (٨٩١هـ)

الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٩م، حققه مصطفى السقا - كامل المهندس.

ابن عبد الحق: عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى (٧٣٩هـ):

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، طبعة عيسى الخلى، القاهرة ١٩٥٤م، حققه على البحوى.

ابن عربشاه: شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقى (٨٥٤هـ):

عجائب المقدور في أخبار تيمور، مصر ١٢٨٥هـ.

ابن العماد: عبد الحى بن العماد الحنبلى (١٠٨٩هـ):

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر القدسى: القاهرة، ١٣٥٠هـ.

العمرى: شهاب الدين أحمد بن فضل الله (٧٤٢هـ):

التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، بالقاهرة ١٣١٢هـ.

العيني: بدر الدين محمود (٨٥٥هـ):

السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٧م،

حققه فهيم شلتوت.

- الغيثي: عبد الله بن فتح الله البغدادي (من علماء القرن العاشر الهجري):  
التاريخ الغيثي، بغداد ١٩٧٥م، حققه طارق الحمداني.  
الفاقي: أبو الطيب محمد بن أبي العباس المكي (٨٣٢هـ):  
العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٦٢م،  
حققه فؤاد سيد - محمود الطناحي.
- أبو الفدا: إسماعيل بن علي (٧٣٢هـ):  
المختصر في أخبار البشر: المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥هـ.  
ابن الفرات: (محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ):  
تاريخ الدول والملوك، الجزء التاسع، نشر الدكتور قسطنطين رزيق والدكتورة  
نجلاء عز الدين، بيروت ١٩٣٦م.
- الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب (٨١٦هـ):  
القاموس المحيط، المطبعة المصرية ١٩٣٥م.  
القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١هـ):  
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ جزءا، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة  
١٩٦٣م، مصورة عن الطبعة الأميرية القاهرة ١٩٢٠م.
- أبو الخاسن: جمال الدين يوسف بن تغري بزدى (٨٧٤هـ):  
( أ ) المنهل الصافي المستوفى بعد الوافي ج١، طبعة دار الكتب المصرية  
١٩٥٦م، حققه أحمد نجاتي.
- (ب) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، والأجزاء من ١ - ١٢،  
المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٣م، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية  
١٩٣٠ - ١٩٥٦م.
- والجزء الثالث عشر طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧٠م،  
حققه فهد شلتوت.
- المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ):  
( أ ) إغاثة الأمة بكشف الغمة، سورية سنة ١٩٥٦م.

(ب) الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، مطبعة التأليف القاهرة ١٨٩٥م.

(ج) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، عالم الكتب، القاهرة ١٩٦١م، حققه عبد المجيد عابدين.

(د) السلوك لمعرفة دول الملوك ج١، ج٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨م، حققه الدكتور محمد مصطفى زيادة.

الجزء الثالث والرابع، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٧٠ - ١٩٧٣م، حققه الدكتور سعيد عاشور.

(هـ) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - جزءان - مؤسسة الحلبي بالقاهرة، مصورة عن طبعة بولاق سنة ١٢٧٠هـ.

ابن ممتي: الأسعد شرف الدين (٦٠٦هـ):

كتاب قوانين الدواوين، مطبعة مصر سنة ١٩٤٣م، حققه عزيز سوريال عطية.

النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٢هـ):

نهاية الأرب في فنون الأدب - الجزء الثامن - المؤسسة المصرية العامة

١٩٦٣، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩م.

ياقوت: شهاب الدين ياقوا الرومي الحموي (٦٢٦هـ):

معجم البلدان، طبعة الخانجي، القاهرة ١٩٠٦م.

ثالثاً: المراجع العربية الحديثة:

توفيق إسكندر: نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العصر الوسيط:  
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السادس سنة ١٩٥٧م.

حسن الباشا: الدكتور حسن الباشا:

الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، النهضة المصرية، سنة

١٩٥٧م.

حكيم أمين: الدكتور حكيم أمين عبد السيد:

قيام دولة المماليك الثانية، دار الكاتب العربي بالقاهرة، سنة ١٩٦٧م.

دراج: الدكتور أحمد دراج:

المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، دار الفكر العربي، سنة ١٩٦١م.

دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، بغداد سنة ١٩٧١م،

ترجمة الدكتور أكرم فاضل.

سرور: الدكتور محمد جمال الدين:

(أ) دولة الظاهر بيبرس في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة سنة ١٩٦٠م.

(ب) دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٤٧م.

السندوي: حسن السندوي:

تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، سنة ١٩٤٨م.

طوخان: الدكتور إبراهيم علي:

(أ) مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، النهضة المصرية، سنة ١٩٦٠م.

(ب) النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب

العربي القاهرة سنة ١٩٦٨م.

عاشور: الدكتور سعيد عبد الفتاح:

(أ) العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة

١٩٦٥م.

(ب) قبرص والحروب الصليبية، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧م.

(ج) المجتمع المصرى فى عصر سلاطين الممالىك، دار النهضة العربىة، القاهرة سنة ١٩٦٢.

(د) مصر فى عصر دولة الممالىك البحرىة، مكتبة النهضة المصرىة سنة ١٩٥٩م.

العزاوى: عباس:

تارىخ العراق بىن احتلالىن، جزءان، بغداد، سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦م.

على إبراهىم: الدكتور على إبراهىم حسن:

(أ) تارىخ الممالىك البحرىة، مكتبة النهضة المصرىة سنة ١٩٤٨م

(ب) مصر فى العصور الوسطى، مكتبة النهضة المصرىة سنة ١٩٦٤م.

فىىت: جاستون:

المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى القاهرة سنة ١٩٣٧، ترجمة محمد

وهى.

فىشل: لقاء ابن خلدون لتىمور لنىك، بىروت بدون تارىخ، ترجمة محمد

توفىق.

لستوانج: بلدان الخلافة الشرقىة، مطبوعات اللىجمع العلمى العراقى، بغداد سنة

١٩٥٤م، ترجمة وعلق علىه بشىر فرنىسىس و.كور كىس عواد.

ماجد: الدكتور عبد المنعم ماجد:

نظم دولة سلاطين الممالىك ورسومهم فى مصر، الانجلو، سنة ١٩٦٤م.

ماىر: الملابس المملوكىة، الهىة المصرىة العامة للكتاب ١٩٧٢م، ترجمة صالح

الشىبى.

محمد رمزى: القاموس: الجغرافى للبلاد المصرىة فى جزئىن، طبعة دار الكتب

المصرىة سنة ١٩٥٣ - ١٩٥٥م.

محمد أحمد: تارىخ العمارة الإسلامىة بمصر، القاهرة ١٩٣٧م.

مسعد: الدكتور مصطفى محمد مسعد:

الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، الأنجلو، سنة ١٩٦٠م.

- موير، سيروليام: تاريخ دولة المماليك في مصر، مطبعة المعارف بالقاهرة سنة ١٩٢٤م، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن.
- نعيم زكى: الدكتور نعيم زكى سليمان:  
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى،  
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.
- الحوارى: حسن محمد:  
رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية، القاهرة بدون تاريخ.

رابعًا: المراجع الأوروبية:

**Demombynes (G):**

La Syria Al'epoque des Mamelouks (paris 1023)

**Doppe: (P.H.):**

L'Egypte au commencement de quinzieme siecle, d'apres le traite d'Emmanuel piloti de crete (le caire 1950)

**Dozy: (R):**

Supplement: aux dictionnaires arabes (supplement Dict Ar.) 2 vols (paris 1927)

**Heyd: (W)**

Histoire du commerce du levant au Moyenage Tome II (Leipzig 1923)

**Poliak: (A.N)**

Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon (Landon 1939)

**Van Berchem: (Max)**

Materiaux pour un corpus insription un Arabicarum (Le caire 1924)

Mem. I.F.A. Cairo)

**Wiet: (G)**

Histoire de la Nation Egyptienne, t.IV.

(L'Egypte Arabe) (paris 1937).